التسامح وثقافة الاختلاف

رؤى في بناء المجتمع وتنمية العلاقات

حسن موسى الصفار



"الحمد لله رب العالمين اللهم صل على محمد
خاتم النبيين وتمام عدة المرسلين وعلى آله
الطيبين الطاهرين، وأصحابه المنتجبين"

المحتويات

مقدمة

ملحوظ أن مستوى العلاقات الاجتماعية قد سجل تراجعاً وانخفاضاً عما كان عليه قبل زمن ليس ببعيد في مجتمعاتنا.

فقد كان الناس أقرب إلى بعضهم، وأكثر اهتماماً ببعضهم بعضاً، حيث بساطة الحياة، وتداخل المصالح، ومحدودية الاهتمامات، والأجواء الدينية الدافعة إلى التواصل والتراحم.

أما الآن فقد أوجبت ظروف الحياة نوعاً من التباعد، حتى بين أبناء الأسرة الواحدة، في سكناهم ومواقع أعمالهم، واستقلّ كل فرد بمصالحه وترتيب أمور حياته.

كما تعددت الاهتمامات، وزادت الانشغالات، فمتطلبات الحياة كثيرة، وجهات الاستقطاب والاجتذاب متعددة، من إغراءات مصلحية، ووسائل إعلامية، ومجالات ترفيه.

ثم إن الأجواء الدينية والأعراف والتقاليد، التي كانت تشدّ الناس إلى بعضهم بعضاً، وتشعرهم بالمسؤولية والالتزام المتبادل في علاقاتهم الاجتماعية، قد تقلصت وتضاءل تأثيرها، بسبب هيمنة النوازع المصلحية، والاهتمامات الذاتية، حتى أصبحنا نواجه ظواهر غريبة، من الجفاء والقطيعة حتى بين الأقارب والأرحام، وتُتناقل بعض

القصص المثيرة عن تنكّر أبناء لآبائهم وأمهاتهم، يودعونهم دور رعاية المسنين، أو يتركونهم في المستشفيات، ولا يقومون حتى بزيارتهم أو تفقّد أوضاعهم!!

وهناك حالات مرعبة من إهمال بعض العوائل لأبنائها ومن حدوث تصاعد في جرائم العنف العائلي.

أما العداوات والنزاعات وحالات القطيعة بين الإخوة والأقارب، فضلاً عن الآخرين، فهي في زيادة مضطردة، وأغلبها لأسباب ومبررات تافهة غير مهمة.

إن مثل هذه الظواهر، مؤشرات خطيرة على تراجع مستوى العلاقات، وانخفاض درجة الحسّ الإنساني في مجتمعاتنا.

كما أن العلاقات بين التيارات والتجمعات والعناصر الفاعلة في المجتمع، ليست على ما يرام، بل تكتنفها غالباً حالات من التباعد والخصام.

❀❀❀

إن مستوى العلاقات داخل أي مجتمع من المجتمعات ليس مسألة كمالية جانبية، بل هي عنصر أساس في تقرير وضع المجتمع، وتحديد مكانته وحركة مساره. فإذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية سليمة صحيحة، كان المجتمع مهيأً للتقدم والانطلاق. وعندما تسوء حالة العلاقات داخل المجتمع، فستنعكس على مجمل أوضاعه تخلفاً وانحطاطاً.

لذلك، فإن أي حركة نهوض لا يمكنها أن تغفل شأن العلاقات الاجتماعية، فهي أرضية الانطلاق، ومحفّز الإنتاجية والتقدم.

وحينما انبثقت دعوة الإسلام في أرض الجزيرة العربية، فإنها ركّزت

على إعادة صياغة العلاقات داخل المجتمع العربي، لانتشاله من حالة الصراعات القبلية، والنزاعات المصلحية، ونمط العلاقات الجاهلية المتخلفة.

وفي حديث القرآن الكريم عن عملية التحول الحضاري الإسلامي في المجتمع العربي، يتناول التغيير في شكل العلاقات الاجتماعية، كأهم إنجاز حققته الدعوة، وكان مقدمة لنجاة العرب وخلاصهم من الجاهلية والتخلف، يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾[1]

فالآية الكريمة تُذكِّر المسلمين بأهمّ نعمة أسبغها الله عليهم، وهي تغيير نمط علاقاتهم، من حالة التنافر والعداء، إلى مستوى الأُلفة والأخوة، فتمكنوا بذلك من تجاوز واقع السقوط والانحطاط، وأصبحوا أمة ذات رسالة وحضارة.

ويتكرر الحديث في الآية الكريمة عن تلك النعمة مرتين: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾. كما ينسب الله تعالى إلى نفسه إنجاز مهمة التأليف بين قلوبهم ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ لتعظيم هذه المهمة، ولأن برامج الوحي الإلهي وتوجيهاته، هي التي رفعتهم ونقلتهم إلى هذا المستوى المتقدم من الارتباط، والعلاقات الإيجابية.

وكانت المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، نقطة انطلاق للمجتمع الإسلامي الجديد في المدينة المنورة بعد الهجرة، فقد جاء المهاجرون المسلمون من مكة إلى المدينة كضيوف غرباء، تخلوا عن عشائرهم وأهاليهم وأموالهم، وهاجروا في سبيل الله

---

(١) سورة آل عمران: الآية١٠٣.

لخدمة الدين الحنيف، فاستقبلهم الأنصار «أهل المدينة» بحفاوة وترحيب، انطلاقاً من هدي الإيمان، وحب الرسول ﷺ، ولتوثيق عرى الارتباط والتماسك في هذا المجتمع الجديد، أعلن الرسول ﷺ مبدأ الأخوة الإيمانية، ثم وضع صيغة عملية تتمثل في المؤاخاة بين كل واحد من المهاجرين وآخر من الأنصار.

وحينما نقرأ الثورة الفرنسية، كطليعة للتغيير في أوروبا، نجد أن مسألة العلاقات داخل المجتمع، كانت في الصميم من اهتماماتها، ومن أولويات برامجها، ويتجلى ذلك في وثيقة حقوق الإنسان، التي أقرتها الجمعية الوطنية الفرنسية، أثناء الثورة الفرنسية، في ٢٦ أغسطس ١٧٨٩م.

ومجتمعاتنا اليوم، وهي تتطلع للنهوض والتقدم، في حاجة ماسّة للاهتمام بإصلاح شبكة علاقاتها الاجتماعية، بعدما أصابها الكثير من العوارض، مع تطورات الحياة المعاصرة.

إن سلامة العلاقات الداخلية، تنعكس إيجاباً على مختلف جوانب حياة المجتمع، فحركة المعرفة والفكر، تتقدم في ظل أجواء الحرية والتسامح، وأخلاقيات الحوار، واحترام الرأي.

والنشاط الاقتصادي يترعرع وينمو على أرضية التعاون وتظافر القوى والقدرات.

ومكانة المجتمع تتعزز في أنظار الآخرين حينما يكون أكثر تماسكاً وانسجاماً.

والحالة النفسية لأبناء المجتمع، تكون أبعد عن الأزمات والعقد والأمراض، حين تصفو العلاقات، وتتقارب النفوس.

وهكذا تكون سلامة العلاقات هي الطريق إلى مجتمع أفضل.

ومن هنا تبرز أهمية السعي، وبذل الجهد، من أجل تنمية العلاقات الاجتماعية.

❁❁❁

في أجواء التخلف والركود الاجتماعي، تسود بعض الأفكار والثقافات السلبية، التي تخلق عزوفاً عند الناس عن بعضهم بعضاً، وتقيم بينهم الحواجز والسدود، وتعبّئ كل طرف ضد الآخر.

ومن أجلى مصاديق تلك الأفكار: النظريات العنصرية، التي تزعم تفوق عنصر من البشر على غيره، فتزرع عند أبنائه الشعور بالرفعة والتعالي، وتدفعهم نحو الهيمنة والسيطرة على الآخرين، أو انتقاصهم وازدرائهم، مما ينتج وبشكل طبيعي رد فعل رافض عند الطرف الآخر. فيعيش الطرفان حالة عداء ونزاع لا تنتج إلا المآسي والدمار.

ومن قبيلها ثقافة التعصب القومي، التي تستبطن الغض من شأن سائر القوميات، أو التنكر لشيء من حقوقهم وأدوارهم.

وكذلك ثقافة التعصب الديني والمذهبي، التي تدفع أصحابها نحو فرض توجهاتهم ووصايتهم على الآخرين، أو ممارسة العدوان تجاههم، وتجاهل حق الحرية والاختيار الذي منحه الله تعالى لبني البشر، في متبنياتهم الدينية والفكرية، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[3].

وهكذا كل أنواع العصبيات من قبلية وحزبية وغيرها.

إن من حق كل إنسان أن يعتز بانتمائه وهويته، ومقتضى ذلك أن يعترف للآخرين بالحق نفسه، مع الاحترام المتبادل للحقوق وعدم العدوان.

---

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٣) سورة الكهف: الآية ٢٩.

وما أحوج مجتمعاتنا إلى ثقافة تأكيد حقوق الإنسان، التي تحتل مساحة واسعة من الفكر الإسلامي، والتعاليم الدينية، بيد أن خضوع مجتمعاتنا لحالات من الاستبداد الديني والسياسي والاجتماعي، أضعفت حضور هذا الجانب المهمّ من ثقافتنا الإسلامية، إلى حد التغييب والإلغاء، حتى أصبح يُنظر إلى موضوع حقوق الإنسان، وكأنه طرح دخيل جاءنا من الغرب، ومن مفردات الغزو الثقافي.

من ناحية أخرى، فإن استغراق الإنسان المعاصر في مشاكل الحياة ومتطلباتها وإغراءاتها، يجعله أقل ميلاً واهتماماً بالاقتراب من الآخرين والتواصل معهم. فلا بد من ثقافة تلفت الإنسان إلى عضويته في المجتمع، ومسؤوليته تجاهه، وأن تواصله الاجتماعي مظهر لإنسانيته، ونافع له في دنياه وآخرته.

❁❁❁

كل متأمل لمفاهيم الدين وتشريعاته، يدرك موقعية الجانب الاجتماعي وأولويته، فعلاقة الإنسان مع أبناء جنسه ومجتمعه، ليست مسألة هامشية جانبية، بل هي أصل أساس في أهداف الدين وغاياته، ولو استقرأنا آيات القرآن الكريم، لوجدنا القسط الأكبر منها متعلقاً بهذا الجانب.

وفي آيات عديدة من القرآن الكريم، يأتي الأمر بحسن العلاقة مع الآخرين رديفاً للأمر بعبادة الله تعالى. يقول تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا

مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾(٤).

ويقول تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾(٥).

ويقول تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾(٦).

وفي النصوص والأحاديث، نجد عدداً هائلاً منها يربط بين الإيمان والعلاقة الإيجابية مع الآخرين.

كما روي عنه ﷺ أنه قال: « المؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم».

وعنه ﷺ: « المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس ».

وعنه ﷺ: « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ».

ونجد في المفاهيم والتعاليم الدينية مفردات كثيرة ترتبط بالجانب الاجتماعي، كصلة الرحم، والبر بالوالدين، وحسن الجوار، وإصلاح ذات البين، وقضاء الحوائج، وحسن الأخلاق، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وعيادة المريض.

إن هذه المفاهيم والتعاليم بحاجة إلى إثارة وتفعيل في واقع الحياة

---

(٤) سورة النساء: الآية ٣٦.

(٥) سورة الاسراء: الاية ٢٣.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٨٥ .

الاجتماعيـة، وإلى تقـديم بـرامج عمليـة لتجسـيدها وممارسـتها بصـيغ جديدة ومناسبة.

❀❀❀

مصطلح التنمية أصبح محوراً في جميع العلوم الإنسانية وتطبيقاتهـا فهناك تنمية اقتصادية وتنمية ثقافية وتنميـة سياسـية.. ويقصـد بالتنميـة وجود خطط تشق طريقها للتنفيذ من أجل تحقيق تطور وتقدم في ذلـك المجال.

والعلاقات الاجتماعية بما لها من أهمية كبيرة، ومـا يعترضـها مـن عوائـق وعقبـات، ويعتريهـا مـن تصـدعات، تسـتحق أن تخصـص لهـا إمكانات وجهود، ضمن مؤسسات ترصـد حـال العلاقـات في المجتمـع، وتشـخص أوضـاعها وتطوراتهـا، وتضـع الخطـط والـبرامج لتنميتهـا وتطورها.

ففي المجتمعات المتقدمة تقوم مؤسسات تعنى بالدراسات والأبحاث الاجتماعية، وتتـابع الظـواهر المسـتجدة عـبر لغـة الأرقـام والبيانـات، وتصدر تقاريرها وتوصياتها، التي يهتم بها المعنيون بالشأن الاجتماعي.

بينمـا لا زلنـا نعتمـد في تقويمنـا للأوضـاع الاجتماعيـة علـى الملاحظـات العـابرة، والتقـديرات العامـة، الـتي تتـأثر بـالنظرات الشخصية، والأجواء المحيطـة. ولعـل ذلـك هـو سـبب مـا نسـمعه مـن تضخيم لـبعض القضـايا، وإهمـال للـبعض الآخـر، كمـا أن التوجيـه الديني والثقافي عندنا لا يتوفر على دراسات ومعلومات ينطلـق منهـا في تحديد الأولويات، ومعالجة المسائل. فيبقى ضمن دائرة الجهود الفرديـة، والطروحات العمومية.

إن الرصد العلمي للأوضاع الاجتماعية، مهم جداً، لتقدير حجم كل ظاهرة أو مشكلة، ولمعرفة مؤشرات حركة المجتمع، ودلالاتها السلبية والإيجابية.

فكيف هي حال العلاقات الأسرية في ظل متغيرات الحياة؟ .. وما هو مستوى العلاقة بين الفئات والجماعات المتمايزة في انتماءاتها الفكرية أو السياسية؟ وما هو مدى انفتاح المجتمع على المجتمعات المحيطة به؟ وما هي درجة الاهتمام بالشرائح الضعيفة من المجتمع كالفقراء والأيتام والمعوقين؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات وأمثالها، هي من مهام مراكز المعلومات والبحوث والدراسات، التي لا يستغني عنها مجتمع معاصر.

وبعدها يأتي دور مراكز التوعية والتوجيه الثقافي التي تضع البرامج الفكرية والإعلامية حسبما تقتضيه خطط التنمية للعلاقات الاجتماعية.

وأخيراً، لا بد من جهود عملية يقوم بها الخيّرون المصلحون لمعالجة أي خلل في العلاقة.

❀❀❀

من خلال معايشتي للواقع الاجتماعي، وتفاعلي مع مختلف شرائحه، واهتمامي بتطوراته وقضاياه، لاحظت العديد من الثغرات والانسدادات في شبكة العلاقات الاجتماعية، ولمست التأثير السلبي لبعض الأفكار والعادات والممارسات، على حركة التعاطي والتعامل بين أفراد أو فئآت المجتمع.

مما حفزني للتفكير في هذه الجوانب، ودراسة خلفياتها، واقتراح الحلول والمعالجات لتجاوزها، فكنت أرصد وتيرة العلاقات ومسارها، وأبحث في النصوص الدينية المرتبطة بهذا الشأن، وأقرأ بعض الكتابات والبحوث الاجتماعية الحديثة، كما أتابع التقارير والإحصائيات الاجتماعية، فتوفرت لدي حصيلة من الملاحظات والأفكار، طرحتها عبر المحاضرات واللقاءات، وكنت أكتبها لتنشر على شكل مقالات يسهل تداولها، ثم رأيت الفرصة سانحة لجمعها وتبويبها ضمن كتاب واحد. فكان هذا الكتاب الذي تتحرك صفحاته بين يدي القارئ الكريم.

أرجو أن يكون مساهماً في ثقافة تنمية العلاقات الاجتماعية، وباعثاً للارتقاء بها، نحو مجتمع أفضل، ينسج علاقاته بخيوط المحبة، وروح التسامح، وإرادة التعاون، وفقاً للقيم الإنسانية، والمبادئ الإسلامية العظيمة.

والله ولي التوفيق،

حسن موسى الصفار
٢٧ ربيع الأول ١٤٢٣هـ.

الفصل الأول

فلسفة العداوة

خطر العداوة

أسباب العداوات

الهروب من العداوات

الارتياب مدخل إلى العداوات

التحاسد نتاج وتكريس للتخلف

خطر العداوة

يحتاج الإنسان إلى أخيه الإنسان في بعدين:

الأول: البعد المادي:

للتعاون في تسيير أمور المعيشة والحياة، حيث إن الإنسان لا يستطيع بمفرده أن يهيء كل أمور حياته، بل لا بد له من التعاطي مع الآخرين من أبناء جنسه، فهو يحتاج إليهم وهم يحتاجون إليه، وكذلك الحال على مستوى المجتمعات والدول، فمهما كانت إمكانات أي دولة من الدول، لا تستطيع أن تعيش في عزلة عن المجتمع الدولي، وخاصة في هذا العصر، حيث وثّقت تطورات الحياة التداخل والتشابك في المصالح بين مختلف الشعوب والدول.

وكلما اتسعت وقويت علاقة الإنسان مع الآخرين، كانت أمور حياته أكثر يسراً وانتظاما، وهذا أمر واضح ملموس، فإذا كانت هناك حاجة أو قضية، لدى شخص يمتلك شبكة من العلاقات والارتباطات، والقضية نفسها لدى شخص آخر منعزل اجتماعياً، فإن الأول يكون أقدر على إنجاز حاجته وأسرع في معالجة قضيته من الآخر.

الآخر: البعد النفسي:

حيث يأنس الإنسان بأخيه الإنسان، ولو توفرت لإنسان مّا كل وسائل الحياة والرفاه، على أن يعيش منفرداً معزولاً، لما ارتاحً لذلك، لذا فإن السجن الانفرادي يُعَدُّ من أقسى وسائل التعذيب والتنكيل في المعتقلات.

ويرى بعض اللغويين أن أصل اشتقاق اسم الإنسان من الأنس: «الإنسان فعلان عند البصريين لموافقته مع الأنس لفظاً ومعنى. قيل: سمي بذلك لأنه خلق خلقة لا قوام له إلا بأنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، من حيث إنه لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه»[٧].

لذا فإن لمستوى علاقات الإنسان مع من حوله من أبناء جنسه، تأثيراً كبيراً في مدى ارتياحه النفسي، فكلما كانت في درجة أفضل، كان أشد سعادة وهناءً.

من هذا المنطلق فإنه يجب أن يحرص الإنسان على علاقته بأخيه الإنسان، وأن يسعى لتطويرها وتفعيلها بأكبر قدر ممكن، فذلك يخدم مصالحه المادية، ويريحه ويسعده نفسيًّا.

التودد إلى الناس:

وفطرة الإنسان، وتفكيره المنطقي، يقوده إلى هذه الحقيقة، كما أن التعاليم الدينية تؤكد أهمية حسن العلاقة بين الناس، وتعَدُّ نجاح الإنسان في علاقاته مع الآخرين مؤشراً على عمق تدينه ونضج عقله.

---

(٧) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٥٧ ص٢٦٤.

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « خياركم أحسنكم أخلاقاً، الذين يألفون ويؤلفون »[8].

وعنه ﷺ: «أقربكم مني غداً أحسنكم خلقاً وأقربكم من الناس»[9].

وعنه أيضاً ﷺ: « لا خير فيمن لا يُؤلف ولا يألف »[10].

ويقول كما روي عنه ﷺ: « رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس »[11].

العداوة ومضارها:

العداوة تعني وجود خلل في العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتعني حدوث حالة معاكسة ومناقضة لما يجب أن يكون، فبدل أن يأنس كل منهما بالآخر، ويتعاونا في تسيير شؤون حياتيهما، تحصل حالة التباعد والكراهية، ثم تتطور لتصل إلى مستوى النزاع والاعتداء المتبادل .. فالبغض والكراهية يأخذ مكان المحبة والأنس، والاعتداء على المصالح يحتل موقع التعاون.

إنها حالة شاذة غير طبيعية، تخالف الفطرة والوجدان، وتصادم المنطق والعقل، وتشكل تهديداً وخطراً على بناء حياة الإنسان، وحماية مصالحة.

والنصوص الدينية تحذر الإنسان من خطر العداوة، وتنبهه حتى

(٨) المصدر السابق: ج٧٤ ص١٤٩.

(٩) المصدر السابق: ص١٥٠.

(١٠) المصدر السابق: ج٧١ ص٣٩٣.

(١١) الهندي: علي المتقي/كنز العمال ج٣ ص٩ حديث رقم ٥١٧٣.

لا يتورط في مزالقها.

عن رسول الله ﷺ: « ماكان جبرئيل عليه السلام يأتيني إلا قال: يا محمد اتق شحناء الرجال وعداوتهم »[١٢].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: « ما عهد إليَّ جبرئيل عليه السلام في شيء ما عهد إليَّ في معاداة الرجال »[١٣].

وعنه ﷺ: « ألا إن في التباغض الحالقة، لا أعني حالقة الشعر، ولكن حالقة الدين »[١٤].

وروي عنه ﷺ أنه قال: « لم يزل جبرئيل عليه السلام ينهاني عن ملاحاة الرجال كما ينهاني عن شرب الخمر وعبادة الأوثان »[١٥].

وعنه ﷺ: « ألا أنبئكم بشر الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من أبغض الناس وأبغضوه »[١٦].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: « والعداوة القليل منها كثير»[١٧].

ويَعُدُّ الإمام علي عليه السلام العداوة مع الناس قمة الجهالة يقول عليه السلام: «رأس الجهل معاداة الناس» و«معاداة الرجال من شيم الجهّال»[١٨].

---

(١٢) الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي ج٢ ص٣٠١.
(١٣) المصدر السابق: ص٣٠٢.
(١٤) الحر العاملي: محمد بن الحسن/ تفصيل وسائل الشيعة ج١٢ ص٢٠٤ حديث رقم١٦١٩٥.
(١٥) المصدر السابق: حديث رقم١٦١٩٦.
(١٦) النوري: ميرزا حسين/ مستدرك الوسائل ج٩ ص٧٩ حديث رقم١٠٢٦١.
(١٧) المصدر السابق: ص٧٨ حديث رقم١٠٢٥٩.
(١٨) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

وفي كلمة أخرى يقول عليه السلام: « من زرع العدوان حصد الخسران»[19].

وللعداوة مضاعفات وأخطار كثيرة، من أبرزها ما يلي:

١- عذاب النفس:

أرأيت كيف يتعب الإنسان ويرهق حينما يحمل ثقلاً على جسده؟ كذلك فإن العداوات والخصومات تمثل عبئاً ثقيلاً، وحملاً باهظاً على نفس الإنسان، تجلب له الأذى والإزعاج، وتسبب له الهمّ والغمّ، وتضغط على قلبه وأعصابه.

إنك حينما تدخل مجلساً وترى فيه أحباباً وأصدقاء، ينشرح صدرك، وتجلس مرتاحاً مستأنساً، بينما إذا دخلت مجلساً آخر ووجدت فيه من بينك وبينه عداوة وحساسية ، تنزعج نفسياً وتتأذى، وحينما تبقى في المجلس لا تشعر بالراحة والرضا.

وهكذا يكون وجود حالة عداء سبباً للتوتر النفسي، فمجرد مرور ذكره على خاطرك، أو مرور اسمه على سمعك، أو رؤيتك لشخصه، يثير في داخلك مشاعر الغضب والانزعاج.

يقول الإمام علي عليه السلام: « إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب »[20].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: « إياكم والخصومة فإنها تشغل القلب »[21].

---

(١٩) المصدر السابق.

(٢٠) الكليني: محمد بن يعقوب/ الكافي ج٢ ص٣٠٠.

(٢١) المصدر السابق: ص٣٠١.

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: « إياكم والخصومة فإنها تفسد القلب » [22].

وعن الإمام علي الرضا عليه السلام: « إياك والخصومة فإنها تردي بصاحبها » [23].

فالعداوة والخصومة عذاب للنفس، وضغط على الأعصاب، وهي تشغل القلب، وتمرضه، وتفسده، وتسبب الردى والهلاك لصاحبها، وكما قال الإمام علي عليه السلام: «من ساء خلقه فقد عذب نفسه».

٢- استهلاك الجهد:

بدل أن يشتغل الإنسان ببناء ذاته، ويوجه طاقته وجهده لإصلاح أموره، ولتقدمه وتطور حياته، فإن حالة عدائه مع الآخرين، تقتطع جزءاً من اهتمامه وتفكيره، وطاقاته وإمكاناته، وذلك بالطبع لا يتوجه لحماية الذات من الآخر المعادي فقط وإنما لإيقاع الضرر به وتحطيمه، والقضاء على إمكاناته ومصالحه، كما يقوم الطرف الآخر بالمحاولة نفسها والدور نفسه، وبهذا تضيع الجهود وتهدر الإمكانات من الطرفين.

والمثال الأجلى والأوضح هو الحروب التي تنشأ بين الدول المتجاورة، كالحرب العراقية الإيرانية، التي حطمت اقتصاد البلدين، وأثرت على البنية التحتية فيهما، وعوّقت التطور والتقدم في الدولتين، مع الخسائر العظيمة في النفوس والأرواح.

---

(٢٢) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٥ ص١٨٦.

(٢٣) النوري: ميرزا حسين/ مستدرك الوسائل ج٩ ص٧٧ حديث رقم١٠٢٥٤.

٣- مرمى السهام:

حينما يعادي الإنسان الآخرين، فيجب أن لا يتوقع منهم باقات الورود، ولا رسائل الحب والاحترام، بل سيكون في مرمى سهامهم، ومعرض انتقامهم، وسيستخدمون ضده الأسلحة التي بأيديهم، خاصة وأن الناس يتفاوتون في مستويات تفكيرهم، وضوابط تصرفاتهم وممارساتهم، وعلى الإنسان أن يتوقع أسوأ الاحتمالات، من جانب المعادين له، قد تتعرض حياته للتصفية، وأمواله للنهب، وسمعته للتشويه، ويعتدى على حقوقه، وتصنع له العوائق والعقبات في طريق أعماله ونشاطاته.

ولا يخلو الإنسان من نقاط ضعف، وثغرات خلل، عادة ما تكون مستورة خافية، فإذا ابتلي بأعداء وخصوم، فإنهم سينقبون عن أخطائه، ويفتشون عن ثغراته، وينفذون من خلال نقاط ضعفه، لإيقاع الضرر به، وتوجيه الأذى إليه.

لذلك يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: « إياك وعداوة الرجال فإنها تورث المعرّة، تبدي العورة »[٢٤].

فالعداوة تسبب المعرّة أي الأذى، وتكشف العورة، أي نقاط الضعف والخلل.

وأوصى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أبناءه يوماً فقال لهم: « يابني إياكم ومعاداة الرجال، فإنهم لا يخلون من ضربين: من عاقل يمكر بكم، أو جاهل يعجل عليكم)). ثم أنشأ يقول:

سليم العرض من حذر الجوابا ومن دارى الرجال فقد أصابا

---

(٢٤) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٢ ص٢١١.

ومــن هــاب الرجــال تهيبــوه ومن حقر الرجال فلن يــهابا[٢٥]

وقال عليه السلام في كلمة أخرى: إن للخصومة قحماً. وفسرها الشريف الرضي بقوله: يريد بالقحم المهالك، لأنها تقحم أصحابها في المهالك والمتالف في الأكثر[٢٦].

٤- الوقوع في الحرام:

بغض النظر عن مبررات العداء، فإن حالة العداء غالباً ما تدفع الإنسان، لارتكاب مختلف المعاصي والذنوب، من أجل تحقيق الانتصار على عدوه، وإيقاع أكبر قدر من الضرر به، فالكذب والغيبة والنميمة، والسب والشتم، والاعتداء والظلم والتآمر، وما شاكل من المحرمات، كلها وسائل يجد الإنسان نفسه مدفوعاً لاستخدامها في معارك خصوماته وعداواته.

وفي كلمة رائعة يصور الإمام علي عليه السلام موقف مَنْ تورط في عداء أو خصومة، بأنه بين أحد خيارين كلاهما مُرّ، فإما أن يتنازل ويقصّر في المواجهة، فيعطي الفرصة لعدوه أن يتمكن منه ويتغلب عليه ويظلمه، وإما أن يدخل المعركة بكل ما أوتي من قوة، ويستخدم كل أسلحة المواجهة، مشروعة وغير مشروعة، وذلك يعرّضه لارتكاب المعاصي والذنوب، ويبعده عن تقوى الله، فيناله الإثم والسخط الإلهي. يقول عليه السلام: «من بالغ في الخصومة أثم، ومن قصر فيها ظلم، ولا يستطيع أن يتقي الله من خاصم»[٢٧].

---

(٢٥) المصدر السابق: ص٢٠٩.

(٢٦) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة/ من غريب كلامه رقم٣.

(٢٧) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة- قصار الحكم٢٩٨.

وعلّق على هذه الكلمة أحد شرّاح نهج البلاغة بقوله: أشار عليه السلام في هذا الكلام إلى أن الخصومة داء لا دواء له، ولا يحصل منها إلاّ الضرر والخسار، فإن الداخل فيها إذا بالغ يأثم ويبتلى بالخسار الأخروي، وإن قصّر ظلم ويبتلى بالخسار الدنيوي، ويصعب الوقوف بين هذين الحدين، ورعاية أصل التقوى في البين، فمن أراد النجاح فلا بد له من عدم الدخول في الخصومة، والوقوف دائما على الصلح والإصلاح[28].

وفي وصيته لمؤمن الطاق محمد بن النعمان يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «وإياك وكثرة الخصومات فإنها تبعدك عن الله»[29].

وضمن هذا السياق ما روي عن الإمام الرضا عليه السلام: «وإياك والخصومة فإنها تورث الشك، وتحبط العمل، وتردي بصاحبها، وعسى أن يتكلم بشيء لا يغفر له»[30].

٥- إضعاف المجتمع:

المجتمع الذي تسوده أجواء المحبة والوئام، وينشغل أبناؤه بالعمل الإيجابي، والنشاط البنّاء، ويتعاونون فيما بينهم على خدمة مصالحهم، وتسيير أمورهم، هذا المجتمع تكون بنيته قوية، وكيانه متماسكاً ثابتاً، بينما المجتمع الذي تدبّ في أوساطه الخصومات، وتنتشر النزاعات والعداوات، فإنه يصاب بالضعف والهزال، ويبتلى بالتفكك والانهيار.

---

(٢٨) الخوئي: ميرزا حبيب الله/ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ج٢١ ص٣٨٩.

(٢٩) الحراني: الحسن بن علي بن شعبه/ تحف العقول ج٢١ ص٣٨٩.

(٣٠) النوري: ميرزا حسين/ مستدرك الوسائل ج٩ ص٧٧.

لذلك يحذِّر الله تعالى عباده المؤمنين من خطر التنازع والتعادي، وينذرهم بأن النتيجة الحتمية لذلك هو هدر إمكانات المجتمع، وذهاب قوته، وبالتالي فشل المجتمع في تحقيق مصالحه وأهدافه، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٣١].

(٣١) سورة الأنفال: الآية ٤٦.

أسباب العداوات

لماذا يعادي الإنسان أخاه الإنسان؟ ولماذا يمارس العدوان ضده؟

إنها ظاهرة قديمة بدأت منذ الأيام الأولى لهبوط الإنسان على وجه الأرض، وضمن أول أسرة بشرية صغيرة لأبينا آدم عليه السلام حيث اشتعلت نار العداء والكراهية في نفس قابيل على أخيه هابيل، ودفعته إلى قتله وتصفية حياته!! ثم رافقت المجتمع الإنساني هذه الحالة المرضية طوال مسيرة حياته، فلا تخلو مسافة زمنية، ولا منطقة جغرافية، يعيش فيها بشر، من حالات العداء، وممارسات العدوان ..

وقد لاحظ العلماء أن الإنسان أكثر سائر الحيوانات توحشاً وقسوة في عدائه الضمنوعي حيث لا يوجد عدوان يؤدي للقتل بين الحيوانات من النوع نفسه ، فالذئب لا يقتل ذئباً، والأسد لا يقتل أسداً، لكن الإنسان يتجرأ على قتل أخيه الإنسان!! بل إن معاناة الإنسان وآلامه ومآسيه، التي تجرعها من أبناء نوعه وجنسه، هي أكبر بكثير مما لاقاه من كوارث الطبيعة، واعتداء سائر الحيوانات المفترسة ..

وخالق الإنسان، وهو الله سبحانه وتعالى حذّره من مغبة هذه النزعة، منذ صدور القرار الإلهي بخروج آدم وحواء عليهما السلام من الجنة، وبدء حياتهما على سطح الأرض، يقول تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[٣٢].

أما أسباب هذه الظاهرة، وتفسير هذه الحالة، فقد أصبحت ميداناً لبحوث العلماء، ومسرحاً لآرائهم المختلفة، ونظرياتهم المتعددة، ونشير إلى أبرز تلك النظريات والآراء.

نظريات بيولوجية:

هناك مدرسة علمية تحليلية، ترى أن ظاهرة العداوة والعدوان، تعود إلى سبب تكويني في خلقة الإنسان وجسمه، فهي حتمية بيولوجية. ومن أبرز أعلام هذه المدرسة سيزارلومبروزو «١٨٣٦-١٩٠٩م» وهو إيطالي، اختصاصي بعلم الجريمة.

ينطلق أساس نظرية «لومبروزو» من الحتمية البيولوجية للعدوان، وربط هذه الحتمية بسببين:

السبب الأول: يعود إلى مرحلة سابقة في التطور، هي مرحلة الإنسان البدائي المتوحش، إذ يرجع إجرام الشخص إلى ارتداده الوراثي لهذه المرحلة.

والسبب الآخر: يرتبط بالانحطاطية المرضية، التي تنشأ من مرض الصرع الذي ينتقل بالوراثة.

وبرّر السبب الأول، من خلال الفحوصات التي أجراها على عدد كبير من جماجم المجرمين ورؤسهم، إذ وجد أن جمجمة المجرم تشبه في تركيبها التشريحي، ذلك التركيب التشريحي الذي تتميز به جمجمة الإنسان البدائي المتوحش. كما برّر السبب الآخر، بتكرار السلوك

(٣٢) سورة البقرة: الآية ٣٦.

الإجرامي لدى مرضى الصرع. ويرى أن المجرمين يتميزون بخصال تشريحية ونفسية لا تتبدى لدى غيرهم.

وضمن هذه المدرسة، تبنى آخرون نظرية المورّث الزائد، وتعتمد هذه النظرية على أن شذوذ الكرموزومات، وبالتحديد ذلك الشذوذ المتعلق بالمورّث الذكري الزائد « y » يؤدي إلى نتائج جسدية وعقلية خطيرة، وقد ساد الاعتقاد بأن المورّث « y » يسبب العدوان، نتيجة للملاحظات حول العلاقة بين الزيادة الشاذة لهذا المورث لدى البعض وتكرار السلوك العدواني لديهم.

وهناك دراسات وبحوث تربط بين العدوان وتخطيط المخ، وتشير إلى أن الأفراد الذين يعانون من انحرافات في مخططات أمخاخهم، يظهر عليهم العدوان، وتشير كذلك لوجود خلل عضوي يرافقه اختلال وظيفي .

نظريات سيكولوجية:

يرى بعض العلماء أن السلوك العدواني لدى الإنسان والكائنات الحية الأخرى، ينبعث من قوة داخلية تسمى الغريزة العدوانية. وينظّر لهذا الرأي « كونراد لورنز » ـ عالم نفس وحيوان، من النمسا ولد عام ١٩٠٣م ـ في كتابه الشهير « في العدوان » الذي صدر عام ١٩٦٣، مؤكداً غريزية العدوان، وأن هذه الغريزة تحتاج إلى تحرير أو إفراغ بين فترة وأخرى، من أجل تخفيف الضغط الداخلي الذي تسببه على صاحبها، وسبب هذا الضغط هو تراكم الطاقة العدوانية، بعد إفراغها بوقت معين. فالسلوك العدواني يتوقف حدوثه على تراكم هذه الطاقة داخل المتعضية « الكائن الحي » من جهة، وعلى درجة فعالية منبهات العدوان الخارجية من جهة أخرى. وكلما زاد تراكم هذه الطاقة، عمل

أضعف منبه خارجي للعدوان على إثارتها في شكل عدوان صـريح. أمـا إذا مضى وقت كافٍ دون إفراغ هذه الطاقة، فإن العدوان يحدث تلقائيـاً في غياب المنبه الخارجي.

ويرى « لورنز »: أن جميع المحاولات للقضاء على العـدوان سـتكون فاشلة، وأن الإجراء الأكثر فاعلية للتخفيـف مـن العـدوان، هـو تحريـر الطاقـة العدوانيـة، مـن خـلال ممارسـات يقرّهـا المجتمـع، كالرياضـة والمنافسات غير الضارة.

ولعل أشهر نظريات المدرسة النفسية لتفسير السلوك العـدواني، نظرية الإحباط ـ العدوان. إذ ينظـر للعـدوان باعتبـاره نتيجـة للاحبـاط دائماً. فكلما حدث موقف محبط، ظهر العدوان كاستجابة لهذا الإحباط.

والإحباط: عملية تتضمن إدراك الفرد لعائق يعوق إشـباع حاجـة له، أو توقع حدوث هذا العائق في المستقبل.. وينتهي الإحباط في الكثير من الحالات إلى العدوان، ويظهر المصاب بالإحباط شـديد التـوتر ميـالاً إلى اقتناص أية فرصة تتاح له، للخلاص من ضـغط التـوتر لديـه. وقـد يتجه العدوان نحو مصدر الإحباط، وقد يتجه نحو آخرين.

نظرية التعلم الاجتماعي:

وتعتمد هذه النظرية على المحـيط الاجتمـاعي كأسـاس أو كأصـل لنشوء حالة العداوة والعدوان، من خلال الملاحظة والمحاكاة.

ومن أبرز أعـلام هـذه النظريـة « البـورت بنـدورا » ـ ولـد عـام ١٩٢٥م بكندا واختير رئيساً للجمعية النفسية الأمريكيـة ١٩٧٣م وعمـل مدرساً لمادتي علم نفـس العـدوان وتغيّـر الشخصـية ـ. وكـان كتابـه « العدوان: تحليل اجتماعي» محاولـة للإجابـة عـن سـؤال: لمـاذا يعتـدي

البشر؟

ويرى « بندورا » أن السلوك البشري يكتسب مـن خـلال ملاحظـة النماذج السلوكية، التي تحدث في البيئـة الاجتماعيـة المحيطـة بـالفرد أو الجماعة.. فإذا انتبه الطفل إلى نماذج عدوانية، خلال حياته العائليـة، أو عبر مشاهدة أفلام عنف في التلفزيـون مـثلاً، فإنـه يقـوم بتخـزين هـذه النماذج السلوكية، والاحتفاظ بها في الـذاكرة، فـإذا مـا حصـل تعزيـز أوتشجيع، تحوّل ذلك إلى سلوك عدواني

وعلى هذا الأساس، فالناس لا يولدون مزودين بغريزة للعـدوان، بل إنهم يتعلمونه مثل أي سلوك متعلّم آخر. فـالأفراد الـذين شـاهدوا غيرهم يعتدي، تكون احتماليـة اعتـدائهم أكـبر مـن أولئـك الـذين لم يشاهدوا النماذج العدوانية.

هذه بعض النظريات حول تفسـير ظـاهرة العـداوة والعـدوان في المجتمع البشري، وهناك نظريات أخرى عديدة، ضمن هذه التوجهات أو غيرها، وقد استعرض أكثرها وناقشها الباحث الأستاذ/ أسعد النمـر في كتابه القيّم « في سيكولوجية العدوان »[٣٣]، الـذي اعتمـدناه مصـدراً في الحديث عن تلك النظريات، وحول كـل نظريـة هنـاك نقاشـات وردود وملاحظات، للمهتمين بدراسة هذا الموضوع، يمكـن الرجـوع إليهـا في المراجع المختصة.

وواضح أنه لا يمكن القبول بالنظريات التي تُعـدُّ العـدوان حتميـة بيولوجية، لأن ذلك يعني إنكار إرادة الإنسان واختياره، وبالتالي فإنه لا

---

(٣٣) النمر: أسعد/ في سيكولوجية العـدوان – الطبعـة الأولـى ١٩٩٥م المؤسسـة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع– بيروت.

يتحمل مسؤولية عمله ما دام مجبوراً عليه، فلا يستحق بـذلك عقابـاً أو جزاء، كما لا جدوى إذاً من التصـدي للسـلوك العـدواني، مما يعطـي تبريراً أيديولوجياً لهذه الممارسات. كما أن العوامل النفسية تهيئ الفـرد وتجعله مستعداً للسلوك العداوني، دون أن تشكل حتمية تلغـي إرادتـه واختياره.

ولسنا مضطرين لتفسير العدوان برؤية أحاديـة، بـل قـد تتفاعـل عوامل مختلفة لانبعاث حالة عدوانية، كما تتمايز حالات عـن أخـرى في جذورها وأسبابها.

تضارب المصالح:

وإذا ما تجاوزنا الحـديث عـن النظريـات التحليليـة، وفتشـنا عـن الأسباب الميدانية المباشرة، التي تنجم منها حالات العداء والعـدواة بـين الناس لوجدنا أن في طليعتها: تضارب المصالح.

فلكل إنسان في هـذه الحيـاة مصـالحه وتطلعاتـه، الـتي تعبِّـر عـن احتياجاته ورغباته، فإذا ما حال أحد أو تصور أنه يحول بينه وبين حاجـة له أو رغبة عنده، فسيتخذ منه موقف العداء، ويواجهه بالعدوان.

وأغلب الصـراعات والنزاعـات في عـالم البشـر، تحصـل بسـبب اصطدام المصالح، كالنزاع على السلطة والحكم، أو على الثـروة والمـال، أو على الامتيازات والمواقع.

ثم قد تحدث هـذه النزاعـات بـين أفـراد وقـد تكـون بـين فئـات وجماعات، وبين دول وحكومات.

إن سعي الإنسان لتحقيق مصالحه، وإشباع حاجاته ورغباتـه، أمـر مشروع، لكـن ذلـك يجـب أن يكـون ضـمن حـدود الاحـترام لحقـوق

الآخرين، وحريتهم في السعي لخدمة مصالحهم، مما يستلزم وجود نظام وقانون عادل، ينظم سير الناس وتنافسهم في توفير شؤون حياتهم، ومتعلقات ميولهم ورغباتهم.

وغياب ذلك القانون، أو تحيزه لبعض دون آخر، أو عدم وضوحه، قد يكون مسبباً لحالات من التصادم والتضارب في المصالح.

وفي أحيان كثيرة تدفع الأطماع والرغبات أصحابها، إلى تجاوز الحدود، وانتهاك حقوق الآخرين، وهم يعلمون أن ما يقدمون عليه مخالف للنظام والقانون، ومدان من قبل الضمير والوجدان، لكن الطمع والرغبة تقود الإنسان إلى الظلم والعدوان، ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «حبّك للشيء يعمي ويصم»[٣٤].

عداوات الأقارب:

علاقة الإنسان مع أرحامه وأقربائه يفترض أن تكون وثيقة متينة، فهناك ارتباط وجودي تكويني تثبته الجينات والمورثات، التي أصبح العلم يعتمدها للتأكد من الانتساب والانتماء العائلي، وبالتعبير الشعبي إنها علاقة لحم ودم. وأيضاً فهي صحبة عمر حيث يبدأ الإنسان حياته في أحضان عائلته، ورعاية أسرته، ويبقى في ظل هذه العلاقة يلوذ بها وخاصة عند عواصف الزمن، وشدائد الحياة، وهناك الوشائج العاطفية، التي تشده إلى أرحامه وأقربائه.

هذه العلاقة المتجذرة والعميقة، من المؤسف جداً أن تعصف بها في بعض الأحيان، رياح الأطماع وتضارب المصالح المادية الزائلة، فتنسفها وتجتثها، حتى بين الإخوان الأشقاء المنحدرين من صلب أبٍ

---

(٣٤) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٤ ص١٦٤.

واحدٍ، ورحم أمٍّ واحدة!!

والعداوة بين الأقرباء من أسوأ أنواع العداوات، لما تتركه في النفس من عظيم الألم، وعمق الجراح، ولما تخلفه من قطع الأرحام، ووشائج القربى، وتمزيق العوائل والأسر، ولأن الأقرباء أقدر على الإضرار ببعضهم، لمعرفتهم نقاط الضعف فيما بينهم.. لذلك روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: «عداوة الأقارب أمضّ من لسع العقارب»[٣٥].

وكم نجد في مجتمعاتنا من عداوات بين الأقرباء بسبب الخلاف على الإرث؟ وكم من إخوة أشقاء أو غير أشقاء خاضوا ضد بعضهم معارك العداء والكراهية، وانفصمت بينهم عرى الأخوة ووشائج الرحم لاختلافهم على شيء من تركة أبيهم؟

---

(٣٥) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم.

الهروب من العداوات

حالة العداوة مع أيّ أحد من الناس ليست ممتعة ولا مريحة، فهي عبء على نفس الإنسان، واستهلاك لاهتماماته وجهوده، وهدر لطاقات المجتمع، وتمزيق لوحدته وانسجامه.

لذلك على الإنسان العاقل الواعي أن يتجنب العداوات والخصومات، فلا يبادر أحداً بخصومة، ولا يصدر منه ما يسبِّب نزاعاً أو عداءً من قول أو فعل.

وإذا ما حاول أحد أن يستدرجه لعداوة أو صراع، فليتحلَّ بالذكاء وضبط النفس كي لا يقع في الفخ، فإن العداوة نفق لا يعرف الإنسان إذا دخله كيف يخرج منه؟

إن من صفات المؤمنين الواعين، التي يشيد بها القرآن الكريم، أنهم لا يستجيبون لإثارات العداء الصادرة من الجاهلين والمخالفين، بل يعرضون عنها كأنها لم تكن، ولا يقفون عندها بل يمرون بها مرور الكرام، ويرفعون تجاهها شعار المسالمة والموادعة.

١ـ إن افتعال المشاكل مع الناس حالة سلبية عبثية يقوم بها الجاهلون الفارغون، أو المنحرفون المغرضون، وإذا ما تفاعل الإنسان مع حركاتهم العدوانية، وأبدى بها اهتماماً، وردّ فعل، فإنه يحقق غرضهم،

ويساعد في إنجاح خطتهم لإيجاد المشكلة معه، وتوريطه فيها. لذا فإن المؤمن الواعي يفوّت عليهم الفرصة، ويتجاهل محاولاتهم لاستدراجه للصراع. يقول تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[٣٦].

واللغو هو ما لا فائدة فيه. روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ قال عليه السلام: هو أن يتقوّل الرجل عليك بالباطل، أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه لله. وقال مقاتل: هو الشتم، فإن كفار مكة كانوا يشتمون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فنهوا عن إجابتهم[٣٧].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [٣٨].

يقال: تكرَّم فلان عما يشينه إذا تنزَّه وأكرم نفسه عنه، وقيل: مرورهم كراماً هو أن يمروا بمن يسبهم فيصفحون عنه[٣٩].

ويعبِّر عن هذا الموقف المتسامي قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني   فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

٢ـ وإذا كانت نفس الجاهل المغرِض تطفح بالمساوئ والرذائل،

---

(٣٦) سورة المؤمنون: الآيات ١–٣.

(٣٧) الطبرسي: الفضل بن الحسن/ مجمع البيان في تفسير القرآن ج١٨ ص١٣٦ منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت.

(٣٨) سورة الفرقان: الآية٧٢.

(٣٩) الطبرسي: الفضل بن الحسن/ مجمع البيان في تفسير القرآن ج١٩ص١٣٠ منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت.

فيلهج لسانه بكلمات الإثارة، وعبارات الطعن والتجريح، فإن نفس المؤمن الواعي مطمئنة بالخير والهدى، فما يفيض على لسانه إلا حديث الخير والصلاح، فلا يجابه كلمات السَّفه والعداء، إلا بمنطق السلم والتسامي عن اللغو والجهل.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[٤٠].

فهم يعرضون عن أصحاب الكلام السيئ التافه، على أساس الالتزام بمنهجيتهم المستقيمة، وحتى لا ينزلقوا في طريق السوء والانحراف ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ كما أنهم يرفعون شعار المسالمة، ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ ولا يضمرون في أنفسهم حقداً يدفعهم للانتقام والتشفي. وقد يكون ذلك تعبيراً عن الترك والانصراف فهو سلام وداع، إنهم يعلنون إنهاء اللقاء ولكن بإبداء تحية الوداع ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

يقول العلامة الطباطبائي: «أي إذا خاطبهم الجاهلون خطاباً ناشئاً عن جهلهم مما يكرهون أن يخاطبوا به أو يثقل عليهم، كما يستفاد من تعلق الفعل بالوصف، أجابوهم بما هو سالم من القول، وقالوا لهم قولاً سلاماً خالياً عن اللغو والإثم»[٤١].

وتكرر آيات عديدة في القرآن هذا المعنى تأكيداً لأهمية هذا السلوك الواعي، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾[٤٢].

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٤٣].

---

(٤٠) سورة القصص: الآية ٥٥.

(٤١) الطباطبائي: اليسد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن ج١٥ ص٢٣٩.

(٤٢) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٤٣) سورة الزخرف: الآية ٨٩.

ضبط الانفعالات:

الإنسان كائن حي زوَّده الله تعالى بغرائز وشهوات، منها تنطلق انفعالاته، وبها يحقق لذاته ومصالحه.

ومن الغرائز العميقة في نفس الإنسان ووجوده غريزة الغضب، التي تتحرك وتثور حينما يتعرض للخطر والعدوان، أو تنتصب في وجهه العوائق والعقبات لتحول بينه وبين تحقيق رغباته ومتطلباته.

وبالانفعالات الصادرة عن هذه الغريزة، يدافع الكائن الحي عن نفسه، ويصد الخطر عن وجوده ومصالحه.

إن الإساءات التي تقع على الإنسان من الآخرين، تأخذ دور المنبّه والمثير لهذه الغريزة الكامنة في النفس، وعلى أساس هذه الإثارة تحصل الاستجابة الانفعالية، وتترجم في الواقع الخارجي ممارسة عدائية انتقامية.

فهناك إذن جوانب ثلاثة:

١ـ كائن حي ـ إنسان ـ يمتلك قوة غريزية غاضبة.
٢ـ حدث أو تصرف يكون منبهاً مثيراً لتلك الغريزة.
٣ـ استجابة انفعالية تجاه تلك الإثارة.

وإذا كان وجود غريزة الغضب أمراً طبيعياً وضرورياً لحياة الإنسان، فإن الناس يتفاوتون في مدى الاستجابة للمنبهات والمثيرات التي تتجه صوب هذه الغريزة.

فبعض الناس تكون استجاباتهم الانفعالية خفيفة سريعة، فأقل كلمة تشعل نار الغضب في نفوسهم، وأبسط تصرف تقوم من أجله قيامتهم، ويندفعون للانقضاض على الطرف الآخر بأي وسيلة انتقامية

متاحة لديهم.

وهذا الصنف من الناس يصعب عليهم الانسجام مع الآخرين، ويعجزون عن كسب الأصدقاء والمحبين، ويعيشون حياة شقية قاسية مليئة بالعداوات والخصومات.

إنهم يطلقون العنان لغريزة الغضب، فتضعف الإرادة ويتراجع العقل أمامها.

وقد يندفع الإنسان الغاضب لأعمال وممارسات يندم فيما بعد على ارتكابها، حيث لا يفيد الندم. فكم من أبٍ ينزعج من تصرفات أطفاله الصغار، فينهال عليهم ضرباً مبرحاً يسبب لهم أضراراً وإعاقات جسمية، يتحمّل هو فيما بعد عناء معالجتها إضافة إلى الإثم وسخط الرّب، وعذاب الضمير؟

وكم من زوج يتفجّر بركان غضبه لخطأ ما صدر من زوجته تجاهه، فتضطرب حياته العائلية، وينهدم كيان أسرته، أو يصاب بشرخ عميق؟ وقد يحصل مثل ذلك من قبل الزوجة تجاه زوجها.

وكم من إنسان خسر صديقاً نافعاً مخلصاً لعدم احتماله نقص أو تقصير صدر منه، فواجهه بغضب وانفعال؟

وكم من شخص أوقع نفسه في صراع غير متكافئ مع جهة قوية غاشمة، لأنه لم يفكّر في نتائج انفعالاته؟

إن العقلاء الواعين من الناس هم الذين يجعلون عقولهم حاكمة على غرائزهم، ويفسحون المجال لإرادتهم لضبط انفعالاتهم. فيتحلّون بالرزانة والوقار أمام المثيرات والمنبهات، ولا يستجيبون لشيء منها إلا بقرار عقلي سليم، باستخدام أدوات وأساليب مناسبة.

هذا الضبط للانفعالات، يطلق عليه في مدرسة الأخلاق عدة عناوين: كالحلم وكظم الغيظ والعفو والتسامح والصبر.

وبه يتجاوز الإنسان الضغوط النفسية التي تسببها الإثارات المسيئة، كما يتجنب الوقوع في فخ العداوات والخصومات، بل يكسب القلوب والمواقف في المحيط الاجتماعي.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«جمال الرجل حلمه»

«من حلم ساد»

«بالحلم تكثر الأنصار»[٤٤].

إن من تعيش معهم بشر، فيهم أمزجة مختلفة، وطباع متفاوتة، وفيهم جهال ومغرضون، فحدوث الإساءات والأخطاء من قبلهم أمر وارد ومتكرر، فعلى الإنسان أن يستوعب الآخرين، ويتحمل أخطاءهم وإساءاتهم ليكون أقدر على التعايش معهم.

وبإمكان الإنسان أن يروّض نفسه ويدرّبها على الاحتمال والتجاوز وأن لا ينفعل أمام أي إثارة، بل يتسامى ويغضّ الطرف عن الأخطاء، ليوفّر قوته وغضبه للموارد التي تتطلب ذلك وتستحقه.

إن الحساسية المرهفة عند البعض من الناس تجعله في حالة استنفار وانفعال دائم تجاه الآخرين، حيث تتضخم لديه الأمور البسيطة، ويغضب للمسائل التافهة. فينزلق إلى أوحال الأزمات والمشاكل. يقول الإمام علي عليه السلام: «من عاتب أخاه على كل ذنب كثر عدوه».

---

(٤٤) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

أخلاق أئمة الهدى:

وتطرق أسماعنا قصص عظيمة، ومواقف رائعة، من حياة الرسول محمد ﷺ وأئمة الهدى من أهل بيته عليهم السلام، في سموّهم وتساميهم على إثارات الجاهلين والمغرضين، ومقابلتهم الإساءة بالإعراض والصفح، والحلم والعفو، لكننا غالباً ما نكتفي بهز رؤوسنا طرباً وإعجاباً بتلك الأخلاق الحضارية الرفيعة، بينما المطلوب هو استلهام الدروس والعبر من تلك القصص والمواقف، وجعلها في موضع التأسّي والاقتداء.

١ـ روي أن الإمام علي عليه السلام كان جالساً في أصحابه، فمرت بهم امرأة جميلة، فرمقها القوم بأبصارهم، فقال عليه السلام: إن أبصار هذه الفحول طوامح، وإن ذلك سبب هَبَابِها، فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله، فإنما هي امرأة كامرأته.

فقال رجل من الخوارج: «قاتله الله كافراً ما أفقهه» فوثب القوم ليقتلوه، فقال عليه السلام: رويداً إنما هو سب بسب، أو عفو عن ذنب[٤٥].

وسمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يشتم قنبراً ـ خادمه ـ وقد رام قنبر أن يردّ عليه، فناداه أمير المؤمنين عليه السلام: مهلاً يا قنبر! دع شاتمك مهاناً ترضي الرحمن، وتسخط الشيطان، وتعاقب عدوك، فوالذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، ما أرضى المؤمن ربه بمثل الحلم، ولا أسخط الشيطان بمثل الصمت، ولا عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه[٤٦].

٢ـ وكان الإمام الحسن بن علي عليه السلام راكباً فاستقبله رجل من أهل الشام، صار يسب الإمام ويشتمه، والحسن لا يرد عليه بشيء،

---

(٤٥) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة/ الحكم ٤٢٠.

(٤٦) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٦٨ ص٤٢٤.

فلما فرغ أقبل عليه الإمام مسلماً عليه وقائلاً: أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، ولو حركت رحلك إلينا وكنت ضيفاً إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك.

فخجل الرجل من نفسه وتغيّر موقفه من الإمام.

٣ـ خرج الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام إلى المسجد يوماً فسبّه رجل، فأسرع الناس للانتقام منه، فنهاهم الإمام عن ذلك، وأقبل عليه قائلاً: ما ستره الله عنك أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟

واستقبله يوماً رجل آخر يكيل له السبّ والشتم، فأجابه الإمام: يا فتى إن بين أيدينا عقبة كؤوداً، فإن جزت منها فلا أبالي بما تقول، وإن أتحيّر فيها فأنا شر مما تقول.

ومرة أخرى كان الإمام زين العابدين ماشياً فاعترضه شخص معتدياً عليه بالسبّ والشتم، لكن الإمام أشاح بوجهه عنه، فصرخ الرجل في وجه الإمام: إياك أعني!

فأجابه الإمام فوراً: وعنك أغضي.

وفي موقف آخر: افترى عليه رجل وبالغ في الإساءة والشتم، فقال عليه السلام: إن كنا كما قلت فنستغفر الله، وإن لم نكن كما قلت فغفر الله لك[٤٧].

(٤٧) القرشي: باقر شريف/ حياة الإمام زين العابدين ج١ ص٧٦-٧٧ الطبعة الأولى ١٩٨٨م دار الكتاب الإسلامي -قم.

٤.قال الإمام محمد الباقر عليه السلام لأحد أصحابه ومحبيه علقمة الحضرمي: إني أراك لو سمعت إنساناً يشتم عليًّا فاستطعت أن تقطع أنفه فعلت.

قلت: نعم.

قال: فلا تفعل، ثم قال: إني لأسمع الرجل يسبّ عليًّا وأستتر منه بالسارية، وإذا فرغ أتيته فصافحته[٤٨].

إن مثل هذه المواقف دروس نستوحي منها القدرة على التحكم في انفعالاتنا، وأن لا تستدرجنا الاستفزازات والإثارات للدخول في معارك جانبية، وصراعات طفولية.

عزّ الحلم وذلّ الانفعال:

يتصور بعض الناس أن غض الطرف عن الإساءة، والتجاوز عن الخطأ، يجعله في موقع الضعف والمذلة تجاه الآخرين.

وتلك وسوسة شيطانية، وعزّة آثمة، تحرّض انفعالات الإنسان، وتدفعه للاسترسال مع غريزة الغضب الجامحة، وماذا ستكون النتيجة، إلا زيادة التورط في الخصومات والوقوع في مأزق العداوات؟ ويصبح الإنسان بعدها في موقع ضعف حقيقي. بينما لو اعتصم بالحلم وكظم الغيظ للحظات لوفّر على نفسه عناءً طويلاً، واكتسب عزًّا حقيقيًّا.

لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما روي عنه: إن العفو يزيد صاحبه عزًّا فاعفو يعزّكم الله[٤٩] .

---

(٤٨) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٢ ص٤٠٠.

(٤٩) المصدر السابق: ج٦٨ ص٤١٩.

ويَعُدُّ الرسول ﷺ ضبط الإنسان لانفعالاته علامة على القوة والشجاعة، يقول ﷺ فيما يروى عنه: ليس الشديد بالصّرعه إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.

وخرج ﷺ يوماً وقوم يدحرون حجراً فقال ﷺ: أشدكم من ملك نفسه عند الغضب، وأحلمكم من عفا بعد المقدرة[٥٠].

إن خلافات وصراعات كثيرة تحدث في المجتمع بسبب الحساسية المفرطة تجاه بعض الكلمات أو التصرفات، وإن عداوات ضارة يتورط فيها الإنسان لاستجابته لبعض الإثارات والاستفزازات.

فلنحذر هذه المزالق، ولنتسلح بشجاعة الحلم للهروب من عناء وأخطار العداوات التي لا تستحق أن ينشغل بها الإنسان.

(٥٠) المصدر السابق: ج٧٤ ص١٤٨.

الارتياب مدخل إلى العداوة

انطباعات الإنسان عن الآخرين، ورؤيته لهم، تـؤثر علـى علاقتـه بهـم، وتعاملـه معهـم. فالانطبـاع الجيـد عـن شـخص يشـكل أرضـية للاقتراب منه، وصنع العلاقة معه، بينما الرؤية السلبية تجاه أي شخص تخلق حاجزاً نفسياً يحول دون الثقة به والانفتاح عليـه، وربمـا تتطـور إلى دافع للخلاف والعداوة.

وتتشكل انطباعات الإنسان عن الآخرين من خلال ما يسـمعه أو يلحظه من مواقفهم وتصرفاتهم.

بيد أن كل موقف أو ممارسة تصدر من أحد، غالباً ما تحتمل أكثـر من تفسير إيجابي وسلبي، فحتى الأعمال المصنّفة ضمن قائمـة الأعمـال الصالحة، يمكن التشكيك في دوافع وبواعث القيام بها، فتكون مصـدراً لانطباع سيئ.

ولأن الإنسان ليس له سبيل إلى القطع والجـزم بنيّـات الآخـرين، ولا يعلم على وجه اليقين دوافع وملابسات كل مـواقفهم وتصـرفاتهم، فإن التفسيرات والانطباعات التي تنقدح في ذهنه عنهم تبقى مجرد ظنون واحتمالات.

فالتفسير الإيجابي ينتج ظناً حسناً بينما التفسير السلبي يعني ظناً سيئاً. وهكذا تتراوح انطباعات الإنسان عن الآخرين بين حسن الظن وسوء الظن.

إن حسن الظن يمنح الإنسان رغبة واندفاعاً نحو الآخرين، ويجعله أكثر قدرة على صنع العلاقة معهم، وعلى العكس من ذلك فإن سوء الظن يخلق نفوراً من الآخرين وتحفظاً تجاههم، وقد يكون مدخلاً إلى العداوة والخصام.

يقول الإمام علي عليه السلام:

« من لم يحسن ظنه استوحش من كل أحد »[٥١].

« سوء الظن يفسد الأمور ويبعث على الشرور »[٥٢].

« من حسن ظنه بالناس حاز المحبة منهم »[٥٣].

الارتياب كمسلك:

الارتياب من الريب، وهو بمعنى الشك مع التهمة[٥٤] بأن يشك الإنسان في نيات الطرف الآخر، ويتهمه بسوء في مقاصد أعماله وتصرفاته. وهذا الشك والاتهام إنما يحصل في نفس الإنسان، لأنه يعلم بوجود النزعات الشريرة، ويدرك أن بعض المظاهر البراقة قد تخفي وراءها أهدافاً خبيثة، وبالتالي فهو لا يستطيع أن يخدع نفسه وينظر إلى جميع الأمور والتصرفات ببراءة وثقة.

---

(٥١) التميمي: عبد الواحد الآمدي/ غرر الحكم.

(٥٢) المصدر السابق.

(٥٣) المصدر السابق.

(٥٤) ابن منظور: لسان العرب.

وحتى لو قرر إنسان أن يكون بسيطاً ساذجاً يتعامل مع الجميع بثقة واطمئنان، ودون أي حذر أو شك، فإنه سيتعرض لصفعات ونكبات من بعض من منحهم ثقته، تجعله يعيد النظر في ثقته المطلقة بالناس.

إذاً، فليس المطلوب من الإنسان أن يكون ساذجاً لا يأخذ الاحتمالات الأخرى بعين الاعتبار، وحتى لو طُلب منه ذلك فهو غير ممكن، لأن ورود الخواطر والظنون على ذهن الإنسان ليس أمراً اختيارياً.

لذلك ذهب أكثر العلماء المفسرين في تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ﴾[55] إلى أنّ «المراد بالاجتناب عن الظن: الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كأن يظن بأخيه المؤمن سوءً فيرميه به، ويذكره لغيره، ويرتب عليه سائر آثاره، وأما الظن نفسه بما هو نوع من الإدراك النفساني فهو أمر يفاجئ النفس لا عن اختيار، فلا يتعلق به النهي، اللهم إلا إذا كان بعض مقدماته اختيارياً»[56].

لكن الخطر الحقيقي يكمن في أن يصبح الارتياب وسوء الظن مسلكاً عاماً للإنسان، بحيث ينظر إلى كل الناس بنظّارة سوداء، ويشكك في كل أحد وكل شيء.

وهي حالة مرضية يصاب بها البعض، فيفقد الثقة فيمن حوله، وقد تتفاقم هذه الحالة فيسيء الظن حتى في ربه وخالقه، كما يحدثنا القرآن الكريم عن بعض المشركين والمنافقين: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ

(٥٥) سورة الحجرات: الآية١٢.

(٥٦) الطباطبائي: السيد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن ج١٨ ص٣٢٧.

السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[٥٧].

وتحدثنا الروايات عمَّن ساورتهم الظنون السيئة تجاه رسول الله ﷺ وهو أقدس وأطهر إنسان من البشر، أخرج البخاري عن عروة بن الزبير: أن الزبير كان يحدّث: أنّه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا، إلى رسول الله ﷺ في شِرَاج من الحرَّة -أي مسايل الماء في المدينة- كانا يسقيان به كلاهما، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اِسقِ يا زبير ثم أرسل إلى جارك» فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ [٥٨].

وذات يوم وقف أحد الأشخاص أمام مرجع ديني وعالم جليل محقق هو الشيخ مرتضى الأنصاري رحمه الله وكان يزور الإمام علياً عليه السلام في الروضة الحيدرية، ويقرأ الزيارة الجامعة الكبيرة بصوت يسمع، فجابهه ذلك الشخص قائلاً: إلى متى ترائي في عملك؟ فأجابه الشيخ برحابة وابتسام: وأنت أيضاً اِئت بمثل هذا الرياء[٥٩].

الاستغراق في الارتياب:

إذا كان قلب الإنسان مفتوحاً أمام مختلف الخواطر والظنون، فترد عليه دون اختيار منه، إلا أن للحالة الفكرية والنفسية وللمحيط الاجتماعي أثراً في تحديد نوعية تلك الخواطر والظنون، أو لا أقل في تعزيز نوعية معينة منها.

---

(٥٧) سورة الفتح: الآية٦.

(٥٨) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري- حديث رقم ٢٧٠٨ كتاب الصلح.

(٥٩) الشيرازي: السيد محمد/ من أخلاق العلماء ص٩ الطبعة الأولى ١٩٩٧م- بيروت.

فهناك عوامل عديدة تدفع الإنسان للاستغراق في الارتياب تجاه الآخرين، وتفقده توازنه في النظر إليهم وتفسير أعمالهم وتصرفاتهم، ومن أبرزها:

١ـ ضعف الوازع الديني: فالقلب المتصل بالله تعالى، الذي يستشعر حضوره ورقابته، لا يختزن الظنون السيئة ولا يحتفظ بها أو ينميها في جوانحه، حتى وإن خطرت على صفحته، بل يطردها ويكنس آثارها في نفسه بذكر الله تعالى وبالوعي السليم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[٦٠].

والطائف هو الذي يطوف حول الشيء، فكأنّ وساوس الشيطان تدور حول فكر الإنسان وقلبه، لتأخذ موقعها فيه، لكن الإنسان المتقي يتذكر ربه والقيم والمبادئ الصحيحة، ويحاكم تلك الوساوس على أساسها، فيمتلك البصيرة والرؤية السليمة، التي يتجاوز بها الأوهام والظنون. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حسن الظن من حسن العبادة»[٦١].

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«أفضل الورع حسن الظن»[٦٢].

«لا إيمان مع سوء الظن»[٦٣].

---

(٦٠) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

(٦١) السجستاني: أبو داود سليمان بن الأشعث/ سنن أبي داود- كتاب الأدب- حديث رقم ٤٩٩٣.

(٦٢) التميمي: عبد الواحد الآمدي/ غرر الحكم.

(٦٣) المصدر السابق.

٢ـ مرآة الذات: غالباً ما ينظر الإنسان للآخرين من خلال ذاته، فإذا ما وجد نفسه يقوم ببعض الأعمال الصالحة بباعث مصلحي نفعي، فإنه قد يفترض الحالة نفسها في الآخرين، وإذا كان يمارس بعض التصرفات الخطأ، ضمن ظرف معين، ثم رأى آخرين في الظرف نفسه، فسيعتقد أنهم يفعلون ما فعل. وعلى العكس من ذلك صاحب الذات الطيبة، والنيَّات السليمة، فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه حسن الظن بالآخرين.

يقول الإمام علي عليه السلام: «الرجل السوء لا يظن بأحد خيراً لأنه لا يراه إلا بوصف نفسه»[٦٤].

ويقول عليه السلام في كلمة أخرى: «الشرير لا يظن بأحد خيراً لأنه لا يراه إلا بطبع نفسه»[٦٥].

وينقل عن أحد العلماء الصالحين أنه استغرب حينما أخبر عن سارق سطا على أحد المنازل قرب الفجر متسائلاً: متى أنهى صلاة الليل حتى وسعه الوقت للسرقة؟

ويقول مثل شعبي: كلٌّ يرى الناس بعين ذاته.

٣ـ أجواء السوء: العناصر المنحرفة السيئة تجد نفسها معنية بتتبع العثرات والأخطاء التي تصدر من هذا وذاك، لتبرر لذاتها الانحراف، وحتى تتوجه الأنظار إلى أخطاء غيرهم، بدل التركيز عليهم، وأيضاً للتخفيف من وقع انحرافاتهم في الوسط الاجتماعي، ما دام غيرهم يشاركهم فيها.

---

(٦٤) التميمي: عبد الواحد الآمدي/ غرر الحكم.

(٦٥) المصدر السابق.

يقول الإمام علي عليه السلام: « ذوو العيوب يحبّون إشاعة معائب الناس ليتسع لهم العذر في معائبهم »[٦٦].

كما تجد هذه الفئة نفسها في مواجهة مع المؤمنين الصالحين، فتسعى لتشويه سمعتهم، والتشكيك في نيّاتهم.

لذلك فإن من يقترب من هذه الأجواء السيئة، يتأثر بالإشاعات التي تدور فيها، وتتسرب إليه الظنون السيئة تجاه الآخرين الأبرياء، يقول الإمام علي عليه السلام: « مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار »[٦٧].

وقد نجد مثل هذه الحالة بين الاتجاهات المختلفة، فإذا كانت هناك فئة متدينة ذات نشاط وفاعلية اجتماعية، فإن الفئة الأخرى التي ليس لها دور ولا نشاط، قد تشعر بنوع من الحرج داخل نفسها وأمام الآخرين، ولدفع هذا الحرج فإنها تبحث عن أخطاء العاملين المصلحين، وتضخّم الهفوات، وتشكك في سلامة طويتهم، واستقامة مسيرتهم، وذلك يخلّف أثراً على نفوس المحيطين بهذه الفئة، والقريبين من أجوائها، فيصبح لديهم شيء من التحفظ والارتياب تجاه الفئة العاملة التي تخدم قضايا الدين والمجتمع.

٤ـ الميل للمشاكسة: الإنسان المهتم بكسب محبة الآخرين، يحرص على توفير فرص الانفتاح عليهم والاقتراب منهم، لذلك يربي نفسه على التعاطي الإيجابي مع الآخرين، بدءاً من النظر إليهم، والتفسير لأعمالهم ومواقفهم، عدا الحالات التي يتأكد من عدم صلاحها.

أما الإنسان المعقد، الذي يميل إلى المشاكسة والمنازعة، فإنه يرمق

---

(٦٦) المصدر السابق.

(٦٧) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧١ ص١٩٧.

الآخرين دائماً بنظرات الشك والريب، ليبرر بذلك مشاكسته لهم، وإبداء الإساءة تجاههم.

الانطلاق من سوء الظن:

أسوأ ما في الارتياب أنه يصبح مدخلاً ومعبراً إلى التجاوزات العدوانية على الآخرين، فهو قد ينتج فتوراً في العلاقة أو قطيعة تامّة، كما قد يتحول من مجرد ظن وارتياب داخل نفس الإنسان، إلى افتراء على الجهة التي تعلق بها، حيث يشيع الإنسان ظنونه وشكوكه لدى آخرين، وبالتالي فإنه ينال من سمعة ذلك الطرف، ويشوّه شخصيته، ويصنع عليه جواً من الدعاية المضادة، كل ذلك اعتماداً على ظن مجرد ودون إثبات أو دليل، فيجد الطرف الآخر نفسه في قفص الاتّهام، ومحاطاً بالشكوك والتساؤلات، وكما قال الشاعر:

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً فما اعتذارك من قول إذا قيلا[٦٨]

وقد تتطور الأمور إلى أكثر من ذلك اعتداءً وإساءة، ونزاعاً وفتنة. يقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «فإن الشكوك والظنون لواقح الفتن، ومكدرة لصفو المنائح والمنن»[٦٩].

لذلك تؤكد التعاليم الإسلامية أهمية اجتناب سوء الظن، وعدم جواز ترتيب أي أثر عليه في التعامل مع الآخرين.

فالفقهاء يذكرون في فتاواهم أن أي شك ينتابك فيمن كنت واثقاً من عدالته، فإن ذلك الشك لا قيمة له بل تستصحب الحالة السابقة، ولست مكلفاً بالفحص، فإذا قلدت مرجعاً دينياً لعلمك باجتماع

---

(٦٨) ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك- شاهد رقم ٧٢.

(٦٩) القمي: الشيخ عباس/ مفاتيح الجنان - مناجاة المطيعين لله.

شرائط التقليد فيه، ثـم شـككت في زوال شـيء مـن المواصـفات، فـإن عليك أن تبقى على تقليده حتـى يتـوفر لـك العلـم، ولـيس الظـن أو الشك.

وكذلك لو كنت تصلي جماعة خلف إمام تثـق بعدالتـه، ثـم طـرأ لك ظن أو شك في بقائه على العدالـة، فإنـك لا تبـالي بـذلك الظـن والشك، وتستمر في البناء على عدالته والصلاة خلفه.

أصالة الصحة:

هناك قاعدة تُعدُّ من أشهر القواعد الفقهية المتداولة بين الفقهـاء، ويتمسك بها في معظم أبواب الفقه أو كلها، وقـد عنونهـا كـثير مـنهم بعنوان «أصالة الصحة في فعل الغير».

حول هذه القاعدة يقول الفقيه الشيخ ناصر مكارم:

«إن حمل فعل الغير على الصحة يتصور له معان ثلاث:

أولها: الاعتقاد الجميل في حقه، وترك سوء الظن به، بأن لا يضمر المسلم لأخيه ما يزري به ويشينه، ويعتقد أنـه لم يفعـل سـوءاً عـن علـم وعمد وإن صدر منه ذلـك خطـأً أو نسـياناً... إن الشـارع الحكـيم يـأمر بتحصيل الاعتقاد الحسن في حق المسلمين ونفي اعتقاد السوء عنهم، لما فيه من المصالح التي لا تحصى، كجلب اعتماد المسلمين بعضهم ببعض، ورفع الضغائن عنهم، ودفعاً لما في سـوء الظـن والاعتقـاد مـن التفرقـة والتباعد واختلال النظام وإثارة الفتن بينهم، كما هو ظاهر لمن تدبر.

ثانيها: ترتيب آثار الحسن الفاعلي عليها، أي المعاملـة مـع فاعلـه معاملة من أتى بفعل حسن، وعدم المعاملة معه معاملة مـن ركـب أمـراً قبيحاً، من حسن العشرة معه، والركون إليه فيما يركن علـى مـن لم يُـر

منه قبيح.

ثالثها: ترتيب آثار الفعل الصحيح الواقعي على فعله، بمعنى فرض عمله صحيحاً واقعاً، وفي نفس الأمر»[٧٠].

أما النصوص الدينية التي تحذر الإنسان المسلم من الانزلاق في مزالق الارتياب، وتوجهه إلى التفكير والتعامل الإيجابي مع الآخرين، والبحث عن أفضل الاحتمالات والتفاسير لتصرفاتهم وممارساتهم، هذه النصوص كثيرة جداً، وعلى بعضها اعتمد الفقهاء في تأصيل قاعدة أصالة الصحة.

جاء عن أم المؤمنين عائشة عن رسول الله ﷺ: «من أساء بأخيه الظن فقد أساء بربه»[٧١].

وعنه ﷺ: «اطلب لأخيك عذراً فإن لم تجد له عذراً فالتمس له عذراً»[٧٢].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً»[٧٣].

الانفتاح والمصارحة:

ماذا يفعل الإنسان إذا ألحّ على قلبه ظنّ سلبيّ تجاه إنسان آخر؟

---

(٧٠) الشيرازي: ناصر مكارم/ القواعد الفقهية ج١ ص١١٤ الطبعة الثالثة ١٤١١هـ قم.

(٧١) الهندي:علي المتقي/كنز العمال–حديث رقم ٧٥٨٧.

(٧٢) المجلسي:محمد باقر/بحار الأنوار/ج٧٢ ص١٩٤.

(٧٣) الكليني: محمد بن يعقوب/الأصول من الكافي ج٢ ص٣٦٢.

وكيف يستطيع أن يواجه ذلك الخاطر السيئ؟

قد يصعب عليه تجاهل شك سيطر على ذهنه، وهو في الوقت ذاته لا يرغب في الاستمرار مع مفاعيل الظن السوء.

إن الوعي السليم والتفكير الموضوعي يفرض على الإنسان هنا الانفتاح على الشخص المعني ومصارحته بما يدور في نفسه حوله، لإعطائه الفرصة لتوضيح موقفه، إن كان له مبرِّر أو مسوِّغ وتشجيعه على التراجع عن خطئه إن كان مخطئاً.

يقول المفكر الفرنسي روجيه ميل:

إنني لا أستطيع اجتناب الشك، ما دام كل إنسان يتميز، أول ما يتميز، بواقع أنه حامل سر لولاه لما تحلّى بوجود صميمي إطلاقاً. وينجم عن أنني أنا نفسي مما يمكن أن يطاله الشك، ولذا فإنني لا أستطيع ألا أشك في الآخرين. فما السبيل إلى الخلاص من هذا الدرب المسدود؟ ليس ثمة غير سبيل واحد: سبيل الاعتراف للآخر بالشك الذي ينتابني بصدد قوله وعمله. وهذا الاعتراف بالشك يستطيع وحده إعادة الحوار ومنحه صحة وصدقاً. ولا شيء ينمّ عن احترام الشخص الإنساني مثل أن يقال له: أحسب أنك... ذلك أنني أسلم نفسي على هذا المنوال إلى الآخر، وأعترف بدوري بأنني موضع ارتياب ممكن أيضاً. وهذا يكفي حتى نبلغ كلانا درجة صدق أسمى[(٧٤)].

ما أحوجنا إلى الشفافية والوضوح، وأن يكون الانفتاح والمصارحة هو السبيل لمعالجة تحفظاتنا وإشكالاتنا على بعضنا بعضاً، بدل أن

---

(٧٤) ميل: روجيه/ المواقف الأخلاقية ص٩٣-٩٤ ترجمة الدكتور عادل العوّا/ الطبعة الأولى ١٩٨٧م/ منشورات عويدات/ بيروت - باريس.

نعيش في ظل أجواء ملبّدة بغيوم الشكوك والظنون، وأن تتضرر علاقاتنا الاجتماعية بتأثير حالات الارتياب والافتراء.

التحاسد نتاج وتكريس للتخلف

نعرف جميعاً أهمية سلامة الجسم وعافيته، وندرك كم تسبب الإعاقة والأمراض الجسمية من متاعب وعراقيل في حياة الإنسان، لكن الأكثر أهمية هو صحة النفس وسلامتها، فإعاقات الجسم وأمراضه يمكن تحملها والتكيّف معها، كما يمكن تجاوز تأثيراتها ومضاعفاتها الحياتية عبر تنمية وتفعيل سائر المواهب والقدرات المتعددة التي يمتلكها الإنسان، فكم من معوق أو مبتلى بمرض مزمن قطع أشواط النجاح في هذه الحياة، وحقق إنجازات تفوق بها على الأصحاء. وفي قائمة العلماء والعظماء أسماء لامعة كثيرة لمعلولين وفاقدين لبعض أعضائهم أو حواسهم.

لكن المعوق في نفسيته بعاهة أو مرض فتّاك تتحول حياته إلى جحيم وشقاء، فهو لا يهنأ ولا يسعد في حياته، ولا يستطيع التعايش والانسجام مع الآخرين. بالطبع هناك فارق أساس هو أن إعاقات الجسم قدر مفروض على الإنسان، خارج إرادته واختياره، بينما عاهات النفس ضمن سيطرته وفي نطاق إرادته وقدرته، وإلا لما استحق عليها الذم والتوبيخ، والتعرض للجزاء والعقاب.

ومن الأمراض النفسية الخطيرة ما يشعل نار العداوة، ويؤجج

لهيبها، ويجعل الإنسان في صدام دائم مع الآخرين، فيشقى هو بذلك أولاً، ويسبب المشاكل والمتاعب لمن يقع عليه أذاه.

وفي رأس قائمة تلك الأمراض الفتاكة: الحسد.

التنافس الإيجابي:

حينما يرى الإنسان أشخاصاً ناجحين في الحياة، يتمتعون بنعم وإمكانات، ويحققون إنجازات ومكاسب، فإن ذلك ينبغي أن يدفعه إذا كان سليم القلب معافى النفس إلى أن يتطلع هو إلى مثل تلك الحالة، ويسعى إلى تحقيقها في ذاته، عبر العمل وبذل الجهد، وبالتوجه إلى الله تعالى المالك لكل شيء والمعطي لكل خير.

فالإنسان من حبه لذاته، يريد حيازة الخير لها، ويرغب أن يكون متفوقاً على من حوله، وذلك تطلع مشروع، واندفاع طبيعي، يساعد على إعمار الأرض، وتسخير ثروات الكون، وتفجير طاقات الإنسان، وتحقيق كماله وتقدمه.

إن التسابق نحو خير الدنيا والآخرة مطلوب، يقول تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[٧٥]. ويقول تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[٧٦]. ويقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ۝ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[٧٧]. والتنافس في ميدان العمل مرغوب، يقول تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[٧٨].

---

(٧٥) سورة الحديد: الآية ٢١.

(٧٦) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

(٧٧) سورة الواقعة: الآيتان ١٠-١١.

(٧٨) سورة المطففين: الآية ٢٦.

وهناك فقرات في العديد من الأدعية المأثورة توجه الإنسان إلى أن يطلب من ربه التفوق والتقدم على الآخرين، وأن ينال الأكثر من عطاء ربه ونعمه. كما ورد في الدعاء المشهور الذي يرويه كميل بن زياد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: « واجعلني من أحسن عبيدك نصيباً عندك وأقربهم منزلة منك وأخصِّهم زلفة لديك». وفي دعاء مكارم الأخلاق المروي عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام نقرأ ما يلي: « وبلّغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيتي إلى أحسن النيات، وبعملي إلى أحسن الأعمال».

هكذا يتطلع المؤمن إلى الأكمل والأفضل والأحسن، ويرغب في التفوق والتقدم على الآخرين. وإذا رأى الإنسان ناجحين ومتمكنين ومتنعمين في الحياة المادية أو المعنوية فإن ذلك يثير عنده حافز التطلع، وأن يحقق مثل ما حققوا وينال مثل ما نالوا، دون أن يعني ذلك الكراهية لهم أو الاستياء من تنعمهم، وهو ما تطلق عليه النصوص الدينية عنوان « الغبطة» كما يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: « إن المؤمن يغبط ولا يحسد» [٧٩].

وذلك يعني أن يكثّف الإنسان نشاطه، ويزيد فاعليته، ليسابق الآخرين، ويحرز ما أحرزوا، فالتطلع المجرد، والتمني الفارغ لا ينتج ولا يثمر شيئاً.

الاقتراب من الناجحين:

إن النجاح والتفوق في أي مجال من المجالات، هو ثمرة صفات وسمات معينة، كما ينتج خبرات وتجارب نافعة، فإذا ما رأيت إنساناً

---

(٧٩) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٠ ص٢٥٠.

ناجحاً متفوقاً في جانب يحظى باهتمامك فعليك أن تقترب منه، لتدرس تجربته، وتستفيد من خبرته، ولترى كيف يمكنك أن تكسب من خلال حالته المتقدمة.

وهذا يستلزم أن تنفتح عليه نفسياً، فتكون نظرتك له إيجابية، فهو عضو في أسرتك البشرية، ومجتمعك الإنساني، ونجاحه وتفوقه في ميادين الخير والعطاء يصب في صالح التقدم العام، وما قد يكون لديه من مواصفات طيبة وعوامل ساعدته على النجاح تستحق الإشادة والتقدير.

هذه النظرة الإيجابية تشجعك على الاقتراب منه، وما ينتج عنها من سلوك وتعامل سيدفعه هو الآخر للتعاطي معك، وتلك هي أرضية الصداقة والعلاقة النافعة المثمرة.

الحسد عدوان بلا مبرر:

في الحالة السوية المستقيمة يكون وجود المتفوقين والناجحين حول الإنسان، دافعاً إلى الطموح والتطلع، وسبباً لتوثيق العلاقة والصداقة، أما في الحالة المرضية فإنه يشعل نار العداوة والبغضاء، ويؤدي إلى الفتنة والخطر. حيث يزعج الإنسان ويسخطه وجود شخص متميز عليه في محيطه، فينظر إليه نظرة عدائية، ويتمنى زوال النعمة عنه، وقد يسعى لإيقاع الضرر به، ويطلق على هذه الحالة مصطلح «الحسد».

والحسد ـ كما عرّفه اللغويون وعلماء النفس والأخلاق ـ هو تمني زوال نعمة الغير. جاء في لسان العرب: الحسد أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه. وجاء في «معجم علم النفس والطب النفسي» بأنه: «مشاعر غير سارة تتولد عن الرغبة في

تملك ما يمتلكه شخص آخر مثل الثروة أو الجمال أو المكانة»[٨٠].

يصف الإمام علي عليه السلام الحسد بأنه: «شرّ الأمراض» وأنه «رأس الرذائل». فهو إساءة واعتداء غير مبرر على الغير بلا جرم اقترفه أو ذنب فعله، إلا أنه حظي بنعمة، أو نال مكانة وأحرز مكسباً، يقول الإمام علي عليه السلام: «الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له»[٨١].

فهابيل بن آدم لم تصدر منه أي إساءة تجاه أخيه قابيل، إلا أن الله تعالى تقبل قربانه دون قربان أخيه قابيل، بسبب إخلاصه وتقواه، فثارت حفيظة قابيل، وامتلأت نفسه حنقاً وغيظاً، حسداً لأخيه على مكانته عند الله، واندفع ليرتكب أول جريمة قتل في تاريخ البشر، بتصفية حياة أخيه هابيل. يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ ...... فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٨٢].

ورد عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام أنه قال: «الحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل».

ويوسف بن يعقوب لم يكن له أي ذنب يستوجب عداء إخوته له إلا ما خصّه به أبوه من المحبة والودّ، لتميزه على سائر إخوانه بصفات الكمال ومؤهلات النبوة، فقادهم حسدهم إلى الكيد به والتآمر عليه بتلك الطريقة البشعة التي سجل القرآن الكريم تفاصيلها لتبقى عظة

(٨٠) جابر: د.جابر عبد الحميد – كفافي: د.علاء الدين/ معجم علم النفس والطب النفسي ج٣ ص١١٤٩ دار النهضة العربية/ القاهرة ١٩٩٠م.
(٨١) المجلسي: محمد باقر/بحار الأنوار ج٧٠ ص٢٥٦.
(٨٢) سورة المائدة: الآيات ٢٧–٣٠.

وعبرة للأجيـال: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَـا مِنَّـا وَنَحْـنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ۞ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْـلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[٨٣].

آفاق التقدم:

فرص التقدم المادي والمعنوي متوفرة ومتاحة أمام كل إنسان، ونعم الله تعالى مبذولة للجميع ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاَء وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَـاءِ رَبِّـكَ وَمَـا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٨٤]. ومن تراه متمتعاً بنعمة من النعم، فتلـك حصته التي لا تؤثر على نصيبك ولا تلغي دورك، فشمّر عـن سـاعدك، وابذل جهدك، لتنال من فرص الحياة بمقدار ما تسعى وتتحـرك. وابحـث عن نقاط قوتك، وفجر مواهبك الخاصة، فقد تكون مرشحاً لـدور آخـر وتفوق جديد تمتاز به عن الآخرين.

لكن مرض الحسد الخبيـث ينحـرف بـتفكير الإنسـان عـن هـذا المنحى السليم، لينحـدر بـه إلى منزلـق المشـاعر العدائيـة، وليخلـق في نفسه حالة الإحباط، فيبقى متخلفاً يراوح مكانه، يعيش التأزم النفسي، ويتكرس لديه العجز والفشل. الآخرون يتقـدمون ويواصـلون زحفهـم، فيحقد عليهم لأن تقدمهم يكشف تخلفه، وتكاملهم يبدي نقصه، وبدل أن يقتحم ميدان الجد والاجتهاد، وسـاحة التنـافس والسـباق، ينشـغل باجترار الأحقاد، وتمني فشل الآخرين، والعمل من أجل إعاقة تحـركهم وعرقلة مسيرهم.

لذلك يصف الإمام علي عليه السلام الحسد بأنه سجن لـروح الإنسـان،

---

(٨٣) سورة يوسف: الآيتان ٨-٩.

(٨٤) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

من أن تنطلق في الأفق الرحيب يقول عليه السلام: « الحسد حبس الـروح » وفي عبارة أخرى يصفه بأنـه « دأب السـفّل » أي مهمـة الفاشـلين الفاقـدين للهمة العالية. من هنا فإن « الحسود لا يسـود » كمـا يقـول الإمـام علـي عليه السلام.

فالحاسد لا يفكر كيف يتقدم هو؟ بل يصـبح همـه الأول في الحيـاة سقوط الآخـرين وزوال نعمهـم. يقـول الإمـام علـي عليه السلام: « الحاسـد لا يشـفيه إلا زوال النعمـة » و « الحاسـد يفـرح بالشـر ويغـتم بالسـرور » و« الحاسد يرى أن زوال النعمة عمن يحسده نعمة عليه ».

غضب على القدر:

وإذا كانت بعض النعم والامتيازات تصل إلى الإنسان دون كسب منه، كالصفات الخلقية، والانتماء العائلي، أو الإمكانات التي يرثها من أرحامه، أو المواقع القيادية الرسالية، فإنها تقدير إلهي، وقسـمة ربانيـة، فلماذا ينزعج الحاسد من ذلك؟ إنـه حينئـذٍ يعـترض علـى تقـدير ربـه وحكمته، يقول تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُـدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُـمْ اللَّهُ مِـنْ فَضْلِـهِ﴾[85]. وفي الحديث القدسي عـن الله عـز وجـل: « فـإن الحاسـد ساخط لنعمي، صادٌ لقسمي الذي قسمت بين عبادي »[86]. وعلـى حـدّ تعبير الإمام علي عليه السلام: « الحسود غضبان على القدر ».

وقديماً قال أحد العرفاء:

ألا قـل لمـن كـان لـي حاسـدًا أتـدري علـى مـن أسـأت الأدب
أسـأت علـى الله في فعلـه إذا أنت لم ترض لـي مـا وهـب

---

(٨٥) سورة النساء: الآية ٥٤.

(٨٦) المجلسي: محمد باقر/بحار الأنوار ج ٧٠ ص ٢٤٩.

تحطيم للذات:

الحسد مرض خطير فتّاك تبدأ مضاعفاته المدمرة على نفس حامله أولاً، حيث يعيش مأزوماً محبطاً قلقاً، يرى الأمور والأحداث من خلف نظارة سوداء، وفي الوقت الذي ينعم فيه الآخرون بإنجازاتهم ومكاسبهم، يبقى هو يجتر الهموم والحسرات، فلا يرتاح ولا يهنأ بدنياه، وهو في آخرته أخسر وأشقى. يقول الإمام علي عليه السلام: «لله در الحسد فما أعدله بدأ بصاحبه فقتله» و «الحسد مطية التعب» و «ثمرة الحسد شقاء الدنيا والآخرة» و «ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد» و«الحسد لا يجلب إلا مضرة وغيظاً يوهن قلبك ويمرض جسمك».

أعراض اجتماعية:

قد يكون الحسد مرضاً فردياً محدوداً يبتلى به بعض الأفراد من المجتمع، فيصطلون بنار أضراره وشقائه، وقد يكون ظاهرة سائدة في بعض المجتمعات، تبرز أعراضه ومضاعفاته على مستوى العلاقات بين أفراد المجتمع وفئاته.

ولعل أبرز أعراض الحسد كظاهرة مرضية اجتماعية، هو ما يتجلى في طريقة التعاطي والتعامل مع الكفاءات والقدرات من أبناء المجتمع، ففي الوضع الصحي السليم تلقى الكفاءة والطاقة، في أي مجال من المجالات العلمية أو الأدبية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، ترحيباً من أوساط المجتمع، وتشجيعاً وإشادةً، ومساعدةً ودعماً، يدفعها إلى المزيد من التقدم والعطاء، والنمو والظهور. أما في الحالة المرضية، فإن نظرات التنكر والتجاهل، وإثارة الشكوك والارتياب، وتطلب العثرات والأخطاء، هذه النظرات تلاحق أي كفاءة تبرز، وأي قدرة تظهر، من أبناء المجتمع. وهذا عرض وأثر يدل على انتشار

مرض الحسد في النفوس.

وغالباً ما تعشش هذه الحالة المرضية في المجتمعات المتخلفة والمقهورة، فبروز الكفاءة يذكر الآخرين بنقصهم، وذلك أمر يزعجهم، فيتمنون عدم ظهور أي كفاءة «لأن البلية إذا عمت طابت». كما أن التخلف والقهر يكرس الأنانية الجوفاء الملتوية في نفس الإنسان، فينظر إلى المتميزين والمتفوقين وكأن تقدمهم جاء على حسابه، وأنه الأولى والأحق منهم بتلك المكاسب والإنجازات التي أحرزوها، نتيجة لتضخم الذات، وانتفاخ الأنا، دون سعي أو حركة.

وتلك هي الأرضية التي تنبت منها العداوات، وتفرخ فيها الأحقاد، وتجد كفاءات المجتمع نفسها محاطة بأجواء العداء والصراع، مشغولة بتخطي العراقيل والعقبات المصطنعة في طريقها.

وما يواجه هذه الحالة هو الوعي الحضاري والتربية الأخلاقية، ليدرك أبناء المجتمع دور وأهمية أي كفاءة تبرز في تعزيز مكانتهم جميعاً، وشق طريق التقدم أمامهم، وأن ظهور أي طاقة، عالماً أو خطيباً أو أديباً أو مهندساً أو تاجراً أو موظفاً كبيراً أو رجل أعمال .. هو مكسب لكل المجتمع.

وساحة التنافس والاجتهاد مفتوحة للجميع، ونعم الله واسعة وخيراته كثيرة، فلماذا التحاسد؟ ولماذا التباغض؟

الفصل الثاني

في ثقافة الاختلاف

اختلاف الرأي لا يوجب العداوة

الآخر المخالف: كيف ننظر إليه؟

ذوو الرأي ومسؤولية الحوار

اختلاف الرأي لا يوجب العداوة

قد تعادي شخصاً لأنه أساء لك أو اعتدى على حق من حقوقك، وهذا موقف مفهوم مشروع، وقد تعادي شخصاً لأنه ينافسك أو يزاحمك على مصلحة من المصالح أو مكسب من المكاسب، وهو أمر وارد وقابل للنقاش، أما أن تعادي شخصاً لأن له رأياً يخالف رأيك في قضية علمية أو دينية أو سياسية، فذلك موقف لا يسوّغه لك الشرع ولا العقل.

الرأي: شأن خاص

والرأي كما في اللغة: هو الاعتقاد، والجمع آراء. أي ما اعتقده الإنسان وارتآه. تقول رأيي كذا، أي اعتقادي. والاعتقاد والعقيدة: ما عقد عليه القلب والضمير، وما تديّن به الإنسان واعتقده.

وبذلك فالرأي من شؤون قلب الإنسان، وهو من أخصّ خواصّه الذاتية الشخصية، فلا يحق لأيّ أحد أن يتدخل في هذا الشأن بالقسر والقوة، كما أن التدخل في هذه المنطقة المحرّمة لا يجدي ولا يؤثر، فإذا ما حاولت أي قوة أن تفرض على إنسان رأياً أو تمنعه من رأي، فإنها لن تستطيع إلا إخضاعه ظاهراً، أما قراره الداخلي، وإيمانه القلبي، فيستعصي على الفرض والإكراه.

لذلك، فإن الله سبحانه وتعالى ينفي إمكان الإكراه على الدين وينهى عنه يقول تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[87].

ورائع جداً ما قاله العلامة الطباطبائي حول هذه الآية الكريمة قال: وفي قوله تعالى ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾، نفي الدين الإجباري، لما أن الدين وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإن الإكراه إنما يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية، وأما الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والإدراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علماً، أو تولد المقدمات غير العلمية تصديقاً علمياً، فقوله ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾، إن كان قضية إخبارية حاكية عن حال التكوين أنتج حكماً دينياً ينفي الإكراه على الدين والاعتقاد، وإن كان حكماً إنشائياً تشريعياً كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، كان نهياً عن الحمل على الاعتقاد والإيمان كرها، وهو نهي متك على حقيقة تكوينية، وهي التي مر بيانها أن الإكراه إنما يعمل ويؤثر في مرحلة الأفعال البدنية دون الاعتقادات القلبية[88].

من هذا المنطلق فإن التظاهر بالكفر إذا كان ناتجاً عن ضغط وإكراه، فهو مشروع ولا يناقض الإيمان المستقر في القلب، يقول تعالى: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾[89] ويعبّر عن ذلك في الاصطلاح الشرعي بالتقيّة، التي هي: التحفظ عن

---

(٨٧) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٨٨) الطباطبائي: السيد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن ج٢ ص٣٤٧.

(٨٩) سورة النحل: الآية ١٠٦.

ضرر الغير بموافقته في قول أو فعل مخالف للحق، اقتباساً من قوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾[٩٠].

فالرأي والاعتقاد لا يغيّره الضغط والقهر، والتظاهر بالتخلي عن ذلك الرأي لا يزيله من قرارة نفس الإنسان، بل قد يزداد ثبوتاً ورسوخاً، بدافع التحدي ورد الفعل.

كما ينقل عن قصة العالم الإيطالي «غاليليو غاليلي ١٥٦٤ـ ١٦٤٢م» الذي اعترضت الكنيسة المسيحية وعلماء اللاهوت على آرائه العلمية حول حركة الأرض وأنها ليست مركز العالم، ولا هي ساكنة، بل تتحرك وتدور يومياً، وأن الشمس هي المركز، واتهم بالهرطقة والخروج عن الدين، وجلبوه إلى روما للمثول أمام محكمة التفتيش، فاعتقل في الحال، ثم استُنطق وحُقِّق معه بعد شهرين، وهُدِّد بالتعذيب، ثم أصدرت المحكمة حكمها بأن يعلن «غاليليو» التوبة، ويتنكر لآرائه العلمية، فحضر أمام المحفل الكنسي، وركع على ركبتيه وراح يقرأ ما أجبر على قوله، لكنه عند خروجه من المحكمة عقّب قائلاً: «ومع ذلك فهي تدور» يقصد الأرض[٩١].

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى المجال للإنسان في هذه الحياة ليمارس حرية الرأي والمعتقد، فلم يفرض عليه الإيمان به عنوة، بل أنار له طريق الهداية، وترك له حرية الاختيار ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾[٩٢].

---

(٩٠) سورة آل عمران: الآية ٢٨.

(٩١) حوحو: المهندس أسامة/ مآثر العلماء ص٢٥٢ الطبعة الأولى ١٩٩٤م مؤسسة بحسون بيروت.

(٩٢) سورة الإنسان: الآية ٣.

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٩٣].

ولم يسمح الله تعالى حتى لأنبيائه أن يصادروا من الإنسان حرية رأيه واختياره، فهم يعرضون رسالة الله على الناس، دون فرض أو إكراه ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ۞لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾[٩٤] ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[٩٥].

وإذا كان للرأي هذه الخصوصية في نفس الإنسان، والموقعية في شخصيته، فكيف يحق لك أن تتدخل في هذه الخصوصية، وأن تعادي إنساناً أو تسيء إليه لأنه يمارس شأنه الخاص به في أعماق نفسه؟

إننا نعترف للآخرين بخصوصيتهم في سائر المجالات، كالأكل والشرب مثلاً، فلو رأيت إنساناً يعادي شخصاً لأنه لا يرغب في نوع معين من الطعام، أو يعزف عن لون آخر، لاستنكرت عليه ذلك، على اعتبار أن هذه الرغبات شأن خاص لا علاقة للآخرين بها، والحال أن الرأي آكد خصوصية، وأشدّ التصاقاً بنفس الإنسان.

اجعل نفسك ميزاناً:

وأنت حينما تعادي زيداً أو عمراً لأنه يخالفك في هذا الرأي أو ذاك، هل ترضى أن يعاديك الآخرون على هذا الأساس؟ إنك لا تقبل أن يسيء إليك أحد لأنك تحمل رأياً معيناً، حيث تُعدُّ ذلك شأناً خاصًّا بك، وتعتقد بأحقية رأيك، وعليك أن تعرف أن الآخرين يرون

---

(٩٣) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٩٤) سورة الغاشية: الآيتان ٢١-٢٢.

(٩٥) سورة يونس: الآية ٩٩.

لأنفسهم ما ترى لنفسك.

وفي وصيته الخالدة لابنه الحسن عليه السلام يقول الإمام علي عليه السلام: «يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تَظلِم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسِن كما تحب أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وارضَ من الناس ما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك».

إنها قواعد أساس مهمّة في تعامل الإنسان مع الآخرين، ترجعه إلى ضميره ووجدانه، قبل أي شيء آخر.

احتمال الخطأ والصواب:

يبالغ بعض الناس في التعصب لآرائهم، ويفرطون في الثقة بها، بحيث لا يفسحون أي مجال ولا يعطون أي فرصة للرأي الآخر، فهم على الحق المطلق دائماً، وغيرهم على الباطل في كل شيء.

وينتج عن هذه الحالة -غالباً- موقف التطرف والحديّة تجاه المخالفين، وحتى في الاختلاف عند بعض القضايا الجزئية، والأمور الثانوية الجانبية.

إنه خُلُق يخالف تعاليم الإسلام الذي يربي أبناءه على الاستماع لمختلف الآراء ومحاكمتها على أساس الدليل والمنطق، لا التعصب والانفعال. يقول تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[٩٦].

وأكثر من ذلك، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا يشك في أحقية

---

(٩٦) سورة الزمر: الآيتان ١٧-١٨.

دعوته بمقدار ذرة واحدة، يخاطب المشركين بمنتهى التواضع والموضوعية قائلاً: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[97]. إنه منهج تربوي عظيم، يصوغ شخصية الإنسان على أساس احترام الآخرين، ومركزية العقل والوجدان.

والتعصب المطلق للرأي، والحدّية والتشنج تجاه آراء الآخرين، يمنع الإنسان من الانفتاح على الرأي الآخر، واستماعه والاطلاع عليه، وربما كان هو الرأي الصحيح والصائب. ثم إن ذلك قد يجعل الإنسان في موقف حرج مستقبلاً إذ قد يتبيّن له خطأ رأيه، فكم من إنسان تراجع عن رأيه، وتغيرت قناعاته! وتلك حالة طبيعية قد تحصل للإنسان تجاه مختلف المسائل والقضايا.

يقول شاعر المهجر إيليا أبو ماضي:

رب فكرٍ بان في لوحة نفسي وتجلى
خلته مني ولكن لم يقم حتى تولى
مثل طيف بان في بئر قليلاً واضمحلا
كيف وافى ولماذا فرّ مني؟ لست أدري

وقد رأينا أناساً كانوا يبالغون في التعصب لآرائهم حول بعض المسائل والأشخاص والجهات، ويعدُّون القول بهذا الرأي هو الحدّ الفاصل بين الإيمان والكفر، أو يعتقدون أن الولاء لهذا الشخص أو لهذه الجهة هو مقياس الحق والباطل، ويعادون الناس ويناوؤنهم على هذا الأساس. لكنهم بعد فترة من الزمن تغيَّرت قناعاتهم وآراؤهم، مئة وثمانين درجة، مما أوقعهم في

(٩٧) سورة سبأ: الآية ٢٤.

حرج مع أنفسهم وتجاه الناس.

إن الاعتدال والوسطية هو المنهج السليم، فلا يكون الإنسان متطرفاً ولا متشنجاً حاداً في مواقفه مع الآخرين، وعلى هذا المعنى يحمل قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

وجميل ما قاله أحد العلماء: إن رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

تفّهم مواقف الآخرين:

حينما تعتقد أحقية رأي معيَّن، وتجد آخرين يخالفون هذا الرأي الحق -في نظرك- فإن عليك قبل أن تتهمهم بالعناد والجحود والمروق، وأن تتخذ منهم موقفاً عدائياً، عليك أن تتفهم ظروفهم وخلفية مواقفهم.

فلعل لديهم أدلة مقنعة على ما يذهبون إليه.

أو لعلهم يجهلون الرأي الحق، لقصور في مداركهم ومعلوماتهم.

أو لعلهم يعيشون ضمن بيئة وأجواء تحجب عنهم الحقائق.

أو لعلّ هناك شبهات تشوّش على أذهانهم وأفكارهم.

وتجاه مثل هذه الاحتمالات فإن المطلوب منك هو دراسة موقف الطرف الآخر، ومعرفة وجهة نظره، والدخول في حوار موضوعي معه، ومساعدته على الوصول إلى الحقيقة.

ونشير هنا إلى ملاحظة دقيقة، هي: أن الإنسان قد يؤمن برأي من الآراء، ويعدُّه حقيقة واضحة، تصل إلى مستوى المسلمات والبديهيات،

لأنه قد أشبع الأمر بحثاً، وانشدّ إليه نفسياً، وعاش ضمن محيط قائم على أساس ذلك الرأي، فالمسألة أمامه واضحة جلية لا نقاش فيها، لكن الأمر ليس كذلك عند الآخرين.

« إن وضوح الفكرة لدينا لا يعني أن الآخرين ينظرون إليها بالوضوح نفسه، فربما كنا نتطلع إليها من خلال الجوانب المضيئة عندنا، بينما يكون عنصر الضوء غير متوفر في الجوانب الأخرى التي يعيش فيها الآخرون، لأنهم لا يملكون ما يهيئ لهم ذلك، تماماً كما يكون الصحو في بعض الآفاق مجالاً للانطلاق مع إشعاع الشمس، بينما تجعل السحب الدكناء الآفاق الأخرى في ظلام دامس. وقد يبدو هذا طبيعياً عندما نلاحظ اختلاف وجهات النظر في فهم بعض الأشياء العادية في الحياة، كنتيجة طبيعية لاختلاف العادات والظروف والأفكار. ولعل قيمة هذا الاتجاه، في ملاحظة موقعنا تجاه الآخرين، تبرز في إتاحة الفرصة لنا في الانطلاق نحو موضوعية أكثر وفهم أرحب، في سبيل تعرف وجهة النظر الأخرى، من حيث طبيعة الفكرة التي يؤمنون بها من جهة، ومن حيث طبيعة الموقف الذي يتخذونه منا، من جهة أخرى، الأمر الذي يجعلنا أكثر قدرة على الحركة بوعي، وعلى ضوء الأجوبة الصحيحة لما يرد من التساؤلات، ومعالجة القضايا المعروضة في مجالات البحث »[٩٨].

ويربيِّنا القرآن على هذا النهج الموضوعي حينما يتحدث عن فئات من الرافضين لرسالات الأنبياء، بأن سبب ذلك الرفض هو

---

(٩٨) فضل الله: السيد محمد حسين/ خطوات على طريق الإسلام ص٣٥٧ الطبعة الأولى ١٩٧٧م دار التعارف بيروت.

الجهل وعدم العلم، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾[99]. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[100]. ويقول تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[101].

فنبي الله نوح عليه السلام في بدء رسالته يخاطب قومه مبدياً تفهمه لظروفهم التي تجعلهم يرفضون رسالته، بسبب التشويش على أذهانهم، ووجود الشبهات التي تعيق تفكيرهم، مع أنه يحمل إليهم الدعوة الصادقة، والحجة الواضحة مطالباً لهم بتجاوز تلك الحواجز ليروا الحق. يقول تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[102].

وفي لفتة تربوية معبِّرة يتحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل بعد نجاتهم من الغرق مع نبي الله موسى عليه السلام، وطلبهم منه أن يجعل لهم أصناماً كما للمشركين أصنام!! ومع سخافة الطلب ومخالفته الواضحة للدين، إلا أن نبي الله موسى عليه السلام أرجع ذلك إلى جهلهم، ثم صار يقرر عليهم حقيقة التوحيد من جديد، يقول تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۞ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[103].

---

(٩٩) سورة التوبة: الآية ٦.

(١٠٠) سورة الأنعام: الآية ٣٧.

(١٠١) سورة النجم: الآية ٣٠.

(١٠٢) سورة هود: الآية ٢٨.

(١٠٣) سورة الأعراف: الآيات ١٣٨-١٤٠.

وصلوات الله تعالى على نبينا نبي الرحمة محمد ﷺ الذي كان يدعو الله تعالى لهداية قومه قائلاً: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.

مسؤولية الرأي على صاحبه:

إذا ما أصرّ إنسان على رأي خطأ، ورفض قبول الحق والصواب، فإنه هو الخاسر بالدرجة الأولى، وسيدفع ثمن خطئه، ويتحمل مسؤولية رأيه، وما على المهتدين للحق إلا إرشاده وتوضيح الحقائق له، ثم هو بعد ذلك له كامل الحرية والاختيار، فإن استجاب فقد نفع نفسه، وإن أبى فهو المتضرر.

فمن يريد الذهاب إلى السوق لكنه يسلك طريقاً معاكساً فإن مسؤوليتك تنتهي عند حدود تبيين الطريق له، فإذا ما أصرّ على سلوك الطريق المعاكس، فإنه لن يصل إلى السوق التي يريدها، والطبيب مهمته أن يقدم العلاج للمريض لكنه إذا لم يلتزم بالعلاج، فسيدفع الثمن من صحته.

ولا داعي لكي يزعج الإنسان نفسه، ويدخل في معارك العداء مع الآخرين لأنهم لم يقبلوا الرأي الذي يراه حقًّا.

إن البعض يأخذهم الحماس لمبادئهم وآرائهم بحيث يضغطون على أعصابهم ويتأزّمون نفسياً ويتجاوزون الحدود في التعامل مع الناس، وكأن لهم الوصاية والسيطرة على أفكار الآخرين وتوجهاتهم، وهذا خطأ فظيع.

لقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على هداية قومه، إلى حدّ أنه كان يجهد نفسه أكثر من اللازم، فجاءه التوجيه من الله سبحانه: ﴿ لَعَلَّكَ

بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[١٠٤]. أي مهلك نفسك.

ومرة أخرى يخاطبه الباري جلّ وعلا: ﴿طه ۞ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[١٠٥]. أي ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسّرك على أن يؤمنوا[١٠٦].

وفي القرآن آيات كثيرة تؤكد على أن مهمة النبي والداعية تنتهي عند حدود التبليغ والإرشاد، ولا يصح تجاوز هذه المهمة إلى حدّ ممارسة الوصاية والضغط على الآخرين. يقول تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾[١٠٧].

ويقول تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[١٠٨].

وهناك روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تؤكد أهمية تجنب العداء والخصومة مع الآخرين على أساس الاختلاف في الدين والرأي كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: « إياكم والخصومة في الدين ».

وورد عنه في رواية أخرى: « فلا تخاصموا الناس لدينكم فإن المخاصمة ممرضة للقلب، إن الله قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. وقال: أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى

---

(١٠٤) سورة الشعراء: الآية ٣.

(١٠٥) سورة طه: الآيات ١-٣.

(١٠٦) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد/ تفسير فتح القدير ج٣ ص٤٤٣ المكتبة العصرية- بيروت ١٩٩٧م.

(١٠٧) سورة النساء: الآية ٨٠.

(١٠٨) سورة آل عمران: الآية ٢٠.

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس».

إن هذه التوجيهات الربانية والمفاهيم القرآنية، وسيرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام تردع الإنسان عن أن يكون حاداً متشنجاً مع من يخالفه في الدين والرأي، أو أن يجعل اختلاف الرأي سبباً ومبرراً للعداء والخصومة.

العداوة تمنع التأثير:

إذا كنت مخلصاً لأفكارك، ومتحمساً لنشرها، واستقطاب الآخرين باتجاهها، فإن الطريق لذلك هو الانفتاح على الآخرين، وخلق جوّ من الاحترام والودّ معهم.

فوجود علاقة لك بهم، وتواصل بينك وبينهم، يتيح لك الفرصة لعرض أفكارك وآرائك عليهم، أما القطيعة والعداء، فإنها تسلب منك هذه القدرة، وتفقدك الرغبة والاندفاع في تكرار محاولة التأثير عليهم.

من ناحية أخرى، فإن حالة العداء وما تفرزه من سلوكيات منفرة تحول بين الطرف الآخر وبين الإقبال والاستجابة.

فالعاقل الواعي الذي يريد خدمة أفكاره، وأن تشق طريقها إلى قلوب الناس، هو الذي يمتلك سعة الصدر ورحابة الأفق، ولا ينفعل تجاه الرأي المخالف، حتى ولو تعامل معه الآخرون بشكل سيئ، فإنه يمارس أعلى درجات ضبط النفس، والتحكم في الأعصاب، بحيث يقابلهم باللطف والإحسان، فيمتص التشنجات، ويستوعب الاستفزازات.

وبهذه المنهجية الأخلاقية يدفعهم لإعادة النظر في موقفهم تجاهه، ويشجعهم على الانفتاح على أفكاره، مما قد يغيّر قناعاتهم، ويستقطبهم

إلى جانبه وإلى صف رأيه.

ويؤكد القرآن الكريم تأثير أسلوب الرفق والإحسان وأنه يساعد على تغيير المواقف والنفوس لصالح الدعوة والرسالة، في قوله تعالى: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[109].

فالمنهجية الحسنة القائمة على أساس اللطف والاحترام والودّ مع الآخرين، تختلف في نتائجها عن المنهجية السيئة المعتمدة على الشدة والقطيعة والعداء، فالأولى تفتح الطريق أمام التأثير والكسب، بينما الأخرى تسبب النفور وتزيد هوّة التباعد.

لكن المنهجية الحسنة لا تتوفر إلاّ لمن يروّض نفسه على الصبر تجاه الإساءات والاستفزازات، ويمتلك نصيباً عظيماً من الأخلاق الفاضلة.

وينهى الله سبحانه عباده المؤمنين من أن يتحدثوا مع المخالفين لهم في الدين إلا بأفضل أسلوب، وأحسن طريقة، رعاية لمشاعرهم يقول تعالى ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[110].

لقد واجه رسول الله ﷺ في بدء الدعوة معارضة ومخالفة عنيفة من قبل المشركين، ولكنه تغلب على كل ذلك بأخلاقه العظيمة ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ولولا ذلك الخلق الرفيع لما تمكن الرسول ﷺ من هداية ذلك المجتمع الجاهلي الغارق في الفساد والتخلف،

(١٠٩) سورة فصلت: الآيتان ٣٤-٣٥.

(١١٠) سورة العنكبوت: الآية ٤٦.

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[111].

وهكذا فإن على من يعدُّون أنفسهم حملة للحق، وذوي الفكر الصحيح والرأي الصائب، أن يتحلّوا بمصداقية أخلاقية في التعامل مع الناس، وخاصة المخالفين لهم في المذهب أو الرأي أو الموقف، فإن القطيعة والعداوة والإساءة، تخالف تعاليم الدين، وتصادم توجيهات العقل، وتشوّه دعوة وفكرة أصحابها، وتنفّر الناس منهم.

منهج الإسلام وسيرة السلف:

من الظواهر المؤسفة في بعض الأوساط الدينية، سوء التعامل مع المخالفين في الدين أو المذهب أو الاتجاه، حتى أصبحت الغلظة والفظاظة والتجهم والتشدد سمة من سمات التدين عند هؤلاء، وأصبح حتى الاختلاف على بعض المسائل الجزئية الاجتهادية سبباً للقطيعة والعداء.

وهذا مخالف لنهج الإسلام، ولسيرة السلف الصالح، من أئمة أطهار وصحابة أخيار. فالقرآن الكريم يشجع المسلمين على حسن التعامل والبر بالكافرين غير المحاربين والمعتدين يقول تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[112].

---

(١١١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(١١٢) سورة الممتحنة: الآيتان ٨-٩.

« أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينصبوا لقتالكم في الدين، والإخراج من دياركم.

فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا تبعة »[113].

وفي سيرة رسول الله ﷺ أروع الصور الإنسانية، وأسمى المواقف الأخلاقية في التعامل مع الكافرين من يهود ونصارى ومشركين، ليس في العهد المكي فقط، وإنما في العهد المدني وبعد أن جاء نصر الله والفتح.

وفي معالجة نقدية لظاهرة التشدد عند بعض المتدينين تجاه مخالفيهم كتب الباحث السعودي الدكتور عبد الله الحامد مقالة جميلة تحت عنوان « هل ينبغي أن نكون أكثر سلفية من السلف؟ » نقتطف منها ما يلي: « ويبدو تعامل الخليفة الراشد، علي بن أبي طالب مع الخوارج، نموذجاً واضحاً، لا ليل فيه ولا ضباب، لاسيما أنه خليفة راشد مجتهد، يدرك علاقة القاعدة بالنموذج، وعلاقة النص بالتطبيق.

ولعل من المفيد ـ قبل استنباط التعريف من موقفه ـ أن نتذكر ما اشتمل عليه مذهب الخوارج من مخالفات واضحات، لأمور قطعية الثبوت والدلالة:

أولها: أنهم اعتبروا مرتكبي كبائر الذنوب كفاراً، مخلدين في جهنم، إن لم يتوبوا قبل الممات، وهذا الاعتقاد مخالف لنصوص الكتاب والسنة.

ثانيها: أنهم يردون الأحاديث الواردة، عن طريق عثمان وعلي

---

(113) السعدي: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر/ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص1455/ دار الذخائر ـ مؤسسة الريّان ـ بيروت1997م.

رضي الله عنهما، ومن شايعهما.

ثالثهما: أنهم كفروا الصحابة المشهود لهم بالجنة، كعثمان وعلي، وطلحة والزبير، وكفروا أصحاب الجمل، والحكمين ومن رضي بحكمهما، وكثيراً من الصحابة.

رابعها: أنهم استحلوا دماء المسلمين وأموالهم، إلا من خرج معهم واستحلال دم المسلم محرم بالكتاب والسنة والإجماع. وفي ذلك إخلال كبير خطير بالقطعيات.

وعلى رغم كل هذه الانحرافات الفكرية والسلوكية، لم يكفرهم الخليفة، ولا جمهور الصحابة، على رغم أن تكفيرهم، هو ظاهر الأمر عند عدد آخر، من الفقهاء والعلماء، فقد وردت أحاديث صحيحة في ذمهم، منها أنهم «يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية» وكان يمكن لعلي أن يستثمر الأحاديث التي توحي بكفرهم، لأن مروق الإنسان من الدين، كما يمرق السهم من الرمية، ظاهره الخروج من الدين.

ولكن علياً كان أوعى وأدرى بأحكام التكفير، وكان على درجة فريدة من إنصاف الأعداء والخصوم، فهذا الرجل الذي عاقب الذين غلوا في حبه حتى ألّهوه، لم يكفر الذين كفروه وقاتلوه، وإنما قاتلهم لأنهم بغاة محاربون، ولم يقاتلهم على اعتبار أنهم كفار، ولما سئل: أكفار هم؟ قال: «من الكفر فروا»، لما سئل: أمنافقون هم؟ قال: «المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً» ولما قيل له: [إذن] من هم؟ قال: «إخواننا بغوا علينا».

وبدعة الخوارج تعتبر أشدّ أنواع الابتداع في الإسلام، كما قال أحمد بن حنبل، رحمنا الله وإياه: «لا أعلم قوماً [أي من أهل الابتداع]

شرًّا من الخوارج».

وإنما اعتبر الخوارج غير كفار، لأن بدعهم بدع تأويل، وليست بدع إنكار، لأن تأويل القطعيات «ما لم تكن من أصول الدين، كالصلاة والحج» غير مكفر، أما إنكارها من دون تأويل فهو مكفر.

وموقف عليٍّ وجمهور الصحابة، من انحراف الخوارج الفكري، يضرب نموذجاً إسلامياً فذاً في التسامح مع المخالفين، وبذلك يتمظهر الإسلام أكثر إنصافاً، وإقراراً للحقوق الإنسانية، من دعاة الحرية العلمانية، الذين قال أحد زعمائهم الفرنسيين «سان جوست»: «لا حرية لأعداء الحرية»، أي لا ديموقراطية لأعداء الديموقراطية.

دستور الدولة الإسلامية ـ كما نمذجه علي بن أبي طالب ـ يعترف بكل فئة موجودة في الساحة،حتى الذين لا يعترفون به يعترف بهم، حتى الذين يريدون استئصاله وإسقاطه، مثل دعاة الاستئصال في الفكر الإسلامي «كقدامى الخوارج والمعتزلة، والمتأثرين بردود أفعالهم»، كالديانات الأخرى، التي لا تعترف بالإسلام.

وهذا يدل أيضاً على سعة أفق الإسلام وسماحته، تجاه أهل البدع، وتجاه الأفكار والآراء، وتجاه النقد بالكلمة الحرة. وأنه لا يجيز النيل من أجسادهم، ولا أعراضهم ولا أموالهم، ولا يجيز التضييق عليهم، أو حبسهم حتى يتوبوا، بل لا يجيز حرمانهم من حقوقهم المدنية، ولا سيما الحقوق الوظيفية والمالية، فقد أعلن علي للخوارج، وهو يخطب على المنبر: أن لهم حقاً في بيت المال، لن يمنعهم إياه، «وهم يقاطعون الخطبة بتكفيره»!.

ويأتي تطبيق علي رضي الله عنه، كالشمس قوة وإضاءة، للنص النظري، للاعتبارات الآتية:

١ـ أنه ثاني الأربعة الكبار من الصحابة «عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس»، الذين برزوا في الفقه العام والقانوني.

٢ـ أنه حاكم الدولة، الذي يدرك العلاقة بين النص والتطبيق.

٣ـ أنه أطول الخلفاء الراشدين خبرة عملية، فقد عاش معهم تحت ظلال الوحي، وتطبيق الرسول ﷺ، ثم كان مستشاراً كبيراً للخلفاء الثلاثة من قبله.

٤ـ أنه فعل ذلك، وهو في حال الصراع، التي تختلط فيها الأشياء، وتجرّ الناس إلى الحدّة والشدّة، ويصعب على الناس العاديين أن يتجردوا من الذاتية، حين يتحرّون الموضوعية، وكان بإمكانه أن يستل سيف التعزيز، وأن يمتطي مطية المصالح المرسلة، وأن يفعل ما يقول بعض الفقهاء العباسيين: يجوز قتل ثلثي الناس لاستصلاح الثلث الباقي!.

ولكنه يدرك أن النجاح والذكاء السياسي، لا ينبغي أن يتما على جثة الصدقية الأخلاقية، لأن الأشخاص يموتون، والمبادئ العادلة المستنيرة تحيا، لكي تحيا بها الأمم، فكان هذا الموقف تجسيداً حياً، للديموقراطية الإسلامية».

وأخيراً:

فإن اختلاف الرأي ظاهرة طبيعية في حياة البشر، ولا يصح أن تكون سبباً للتعادي والتخاصم، بل ينبغي أن تستثمر لصالح تكامل المعرفة، واكتشاف الحقيقة، وإثراء الساحة الثقافية.

وأفضل خدمة تقدمها للرأي الذي تؤمن به، حسن تعاملك مع الآخرين، لتقدم بسلوكك الطيب أنموذجاً مقبولاً لأفكارك، ولتكون بسيرتك الصالحة داعية لآرائك، أما أسلوب العداوة والتشدّد، فهو

يسيء إلى التوجه الذي تنتمي إليه أولاً، وإليك آخراً.

الآخر المخالف: كيف ننظر إليه؟

الإنسان المتدين وهو يعتقد بأحقية دينه، وصواب مذهبه، كيف ينظر إلى الآخرين المختلفين معه في الدين أو المذهب؟

لاشك أن الحق واحد لا يتعدد، فإذا آمن الإنسان بدين أو مذهب على أنه حق وصواب، فلا بد أن يكون ما يخالفه عنده باطلاً وخطأً، وحتى إذا كان هناك نقاش حول التخطئة والتصويب في الفروع الشرعية، حيث ذهب بعض العلماء إلى القول بالتصويب، بمعنى أن حكم الله تعالى في المسألة الاجتهادية هو ما اهتدى إليه المجتهد باجتهاده، وليس هناك حكم معيّن من قبل، فكلما يصل إليه اجتهاده فهو الصواب، بينما يرى أغلب العلماء، أن لله تعالى أحكاماً معينة في كل مسألة اجتهادية، فمن هداه اجتهاده إلى ذلك الحكم فقد أصاب، وإلاّ فهو مخطئ. لكن قضايا أصول الاعتقاد لا يمكن أن يجري فيها هذا الاختلاف والنقاش، ولا أن يقول أحد فيها بالتصويب، فعند تعدد المعتقدات لا يقول أحد من العلماء بتصويب الجميع، كما هو الحال في المسائل الفرعية الشرعية، بل اتفقت أقوال العلماء بأن التخطئة تقع في أصول الاعتقاد، والأحكام العقلية عدا ما نسب إلى العنبري عبيد الله بن الحسن ين الحصين، قاضي البصرة (توفي١٦٨هـ) من أن كل مجتهد في الأصول مصيب أيضاً وليس فيها حق متعيّن. وهو قول شاذّ وينقل

ابن حجر تراجع صاحبه العنبري عنه[١١٤].

ومعنى ذلك أن كل متديّن يرى أحقية دينه ومذهبه، وأن المخالفين له على خطأ وباطل في أديانهم ومذاهبهم.

بين العقائد والمعتقدين:

وإذا كانت نظرة المتدين إلى سائر الأديان والمعتقدات المخالفة لدينه ومذهبه، على أنها خطأ وباطلة أمراً منطقياً مفهوماً، شريطة أن يكون تدينه هو قائماً على أساس الدليل والبرهان، فإن نظرته إلى المعتقدين بتلك الأديان والمذاهب، مسألة تحتاج إلى بحث وتمحيص.

ذلك أننا نجد في الساحة الفكرية والاجتماعية توجهات متباينة متناقضة، في تحديد النظر إلى الآخر المخالف دينياً أو مذهبياً، تتراوح بين التشدّد المفرط والتسامح المفرط.

ولعل من أسباب ذلك ما يلي:

أولاً: اختلاف الفهم في الموازنة والترجيح بين ما ورد في التراث الديني، من نصوص وآراء، يدفع بعضها باتجاه التشدّد تجاه المخالفين، بينما يشجّع قسم منها على المرونة والتسامح.

ثانياً: دور الظروف الخارجية من حيث موقعية المخالف ونمط العلاقة معه، فحينما يكون المخالف في موقع قوة واقتدار، ولا يمارس بطشاً وعدواناً، فإن ذلك يساهم في تشكيل صورة أفضل عنه، ويلغي مبررات التشدّد تجاهه، وعلى العكس من ذلك لو كان المخالف في

---

(١١٤) الغزالي: أبو حامد/ المستصفى من علم الأصول ج٤ ص٣٤، تحقيق د.حمزة حافظ/ الجامعة الإسلامية– المدينة المنورة.

موضع حاجة وضعف، أو كان مصدراً للقلق والأذى، فستكون صورته قاتمة كالحة.

ثالثاً: تدخل المشاعر والأحاسيس النفسية الذاتية، حيث تنطلق عند بعض المتدينين روحية الأنانية والاستعلاء، ومشاعر الحقد والانتقام، تحت مبررات دينية مذهبية.

رابعاً: وقد تصبح النظرة إلى الآخر المخالف مجالاً للمزايدات في الساحة الإعلامية والجماهيرية، فمن أجل أن يكرّس هذا الزعيم موقعيته في جمهوره، أو يحصّن هذا المرشد أتباعه ومريديه، يبالغ في تعتيم صورة الآخر المخالف. يقول الدكتور عبد الله بن ضيف الله الرحيلي الأستاذ المشارك في الحديث وعلومه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: (لعل من أوسع أبواب الخطأ في فهم طبيعة التعامل الشرعي، وفي فهم الأخلاق المتعيّنة على المسلم تجاه الكافرين، الانطلاق من الانفعالات والمواقف الشخصية، وليس من خلال النصوص والأحكام الشرعية، وبالتالي تأتي المفاهيم والكتابات في هذا الموضوع تبعاً لمواقف الأشخاص، وانفعالاتهم، وطبائعهم، وظروفهم. فهي عندئذٍ تختلف باختلاف القوة والضعف، والشّدة واللين، والحماس وضده!.

والواجب أن يكون التعرف إلى هذا الجانب المهم من الإسلام، من خلال النصوص الشرعية، لا المواقف الشخصية، ولا ما يُمليه واقع العصر.

والواجب أن يكون ذلك من خلال الرجوع إلى النصوص كلها وفهمها وفق منهج سديد.

ومن المؤكد أنّ ما يُعّبر به بعض المسلمين عن إخلاصهم للإسلام

تجاه تعاملهم مع الكافرين من تصرفات انفعالية، يعبّرون عن الكراهية والعداء بطريقة لا يُقرّها الإسلام، يظنون أنهم ينصرون بها الإسلام، إنما هي تصرفات لا تغني عن العمل الجادّ لنصرة الدين، ولا تنوب عن خُلق الإسلام وأدبه، ولا تنمُّ عنه، ولا تغني، إنها لا تخدم الإسلام في شيء، إنما هي تشنجاتٌ وردود أفعال مخطئة..)[١١٥].

من هنا تبرز أهمية البحث والدراسة الموضوعية لرؤية الدين في النظر إلى المخالفين. والمقصود بذلك النظر إليهم كأشخاص وأناس، وليس كمعتقدات، لأن المفترض في المسلم إيمانه بصحة معتقداته عن دليل وبرهان، مما يعني لديه عدم صحة ما يخالفها.

هل كل مخالف في النار؟

التفكير السائد عند أكثر المتدينين أنّ الجنة حكرٌ على أهل دينهم ومذهبهم، أمّا المخالفون لهم فمصيرهم الحتمي نار جهنم، ذلك أن الجنة لا يدخلها إلا أهل الحق، ولا تنجو من النار إلاّ فرقة واحدة، هي الفرقة الناجية، ويرى أهل كل دين أو مذهب أنهم هم أهل الحق والفرقة الناجية، وبقية العالم كلهم في النار.

وهذا ما نقله القرآن الكريم عن اليهود والنصارى يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١١٦].

وهناك حديث متداول في أوساط المسلمين هو حديث الفرقة

(١١٥) الرحيلي: د.عبد الله ضيف الله/ الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها ص٢٢٣-٢٢٤/ الطبعة الأولى ١٩٩٦م مطبعة سفير - الرياض.
(١١٦) سورة البقرة: الآية١١١.

الناجية، حيث يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملـة، وإن هـذه الملـة سـتفترق على ثلاث وسبعين: اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة)[117].

ورغم تحفظ كثير من العلماء من مختلف المذاهب على سـند هـذا الحديث، وعلى ضـبط متنـه، إلاّ أنـه متـداول، ويشـكل مرجعيـة لـدى المتدينين في نظرتهم إلى مخالفيهم في المذهب والاتجاه من المسلمين.

وقد طعن في سند الحـديث ابـن حـزم وابـن الـوزير والشـوكاني وتوسّع الشيخ يوسف القرضاوي في مناقشته وردّه سنداً ومتناً[118].

وقال الشـيخ جعفـر السـبحاني: (إنّ مشـكلة اخـتلاف نصـوص الحديث لا تقل إعضالاً عن مشكلة سنده، فقـد تطـرق إليـه الاخـتلاف من جهات شتى، لا يمكن معه الاعتماد على واحد منها)[119].

ليس كل مخالف جاحداً:

ما يجب التنبّه له أنّ المخالفين لما نعتقده حقاً لا يمكن سوقهم جميعاً بعصى واحدة، فهناك من يتضح له الحق ولكنه يجحـد ويكـابر، وهنـاك من لم تتوفر له فرصة التعرّف إلى الحق والاطلاع عليه، ولو أتيحـت لـه تلك الفرصة، وأزيحت من أمامه الشبهات والحواجز، لما تـردد في قبـول

---

(١١٧) السجستاني: أبو داود/ سنن أبي داود/ حديث رقم٤٥٩٧.

(١١٨) القرضاوي: الدكتور يوسف/ الصحوة الإسلامية بين الإختلاف المشروع والتفرق المذموم ص٣٤-٣٨/ الطبعة الثالثة ١٩٩٣م مؤسسة الرسالة- بيروت.

(١١٩) السبحاني: الشيخ جعفر/ بحوث في الملل والنحل ج١ ص٢٦ الطبعة الثانية ١٩٩١م/ الدار الإسلامية- بيروت.

الحق.

وإذا كان الجاحد المعاند مستحقاً لعذاب الله وغضبه، فإن المستعدّ نفسياً وفكرياً لقبول الحق لو بلغه واتضح لديه، له حساب آخر.

إنّ أشخاصاً كثيرين يعيشون ضمن بيئة مخالفة للدين الحق، ولا تصلهم رسالة الإسلام، فهم قاصرون عن الوصول إلى الحقيقة، وقد لا يكونون مقصّرين، ولديهم قلوب صافية طيبة لا ترفض الحق، وما نسمعه عن دخول أناس جدد إلى الإسلام من أمريكيين وأوروبيين وغيرهم يؤكد هذه الحقيقة.

فمثل هؤلاء الناس غير المعاندين يتسع لهم عفو الله ورحمته وإن كانوا كفاراً، لأن الله تعالى لا يعذب إنساناً قبل إكمال الحجة عليه، يقول تعالى: ﴿مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾[120] ويقول تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[121].

وينقل الشيخ المطهري عن **"ديكارت"** الفيلسوف الفرنسي قوله: إني لا أدّعي أنّ المسيحية قطعاً أفضل دين في الأرض، ولكني أقول إنّ المسيحية هي الأفضل بالقياس إلى الأديان التي أعرفها، وقد تناولتها بالبحث والتحقيق، وليس لي أي عداء مع الحقيقة، فقد يكون هناك في أماكن أخرى من الدنيا دين يرجح على المسيحية، إنّه لا علم لي فلعل ديناً ومذهباً يوجد في إيران مثلاً هو أفضل وأحسن من المسيحية.

ويعقب الشيخ المطهري قائلاً: لو كان ديكارت صادقاً في حديثه ومستسلماً للحقيقة بالمقدار الذي يدّعيه لنفسه، وقد بحث واستقصى

---

(١٢٠) سورة الإسراء: الآية١٥.

(١٢١) سورة الأنفال: الآية٤٢.

بكل جهوده ولم يصل إلى أكثر مما وصل إليه فهو يُعَدُّ حينئذٍ مسلماً بالفطرة(١٢٢).

ومما يؤيد ذلك ما ورد عن محمد بن مسلم قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام جالساً عن يساره، وزرارة عن يمينه، فدخل عليه أبو بصير فقال: يا أبا عبد الله ما تقول فيمن شكّ في الله؟ فقال عليه السلام: كافر يا أبا محمد. قال: فشكّ في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: كافر. قال: ثم التفت إلى زرارة فقال عليه السلام: إنما يكفر إذا جحد(١٢٣).

المستضعفون فكرياً:

تتحدث بعض النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام عن الناس المستضعفين فكرياً، الذين تقصر مداركهم عن إدراك الحقائق، أو أن الظروف الاجتماعية التي يعيشونها تسلب منهم إمكانات المعرفة ووسائل البحث للوصول إلى الحق، فهؤلاء يتسع لهم عفو الله سبحانه وتعالى، وهم مصداق للمستضعفين الوارد في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً.۞ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾(١٢٤).

ويشير الإمام علي عليه السلام إلى صدق عنوان الاستضعاف على من تتعذر عليه وسائل المعرفة بقوله عليه السلام: (ولا يقع اسم الاستضعاف على

(١٢٢) المطهري: مرتضى/ العدل الإلهي ص٢٨١ الطبعة الثانية ١٩٨٤م مؤسسة الوفاء- بيروت.

(١٢٣) الكليني: محمد بن يعقوب/ الكافي ج٢ ص٣٩٩.

(١٢٤) سورة النساء: الآيتان ٩٨-٩٩.

من بلغته الحجة فسمعتها أذنه ووعاها قلبه)[١٢٥].

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال حينما سئل عن المستضعفين؟: (إنهم ليسوا بالمؤمنين ولا بالكافرين، وهم المرجون لأمر الله)[١٢٦].

وفي حديث آخر يشير الإمام جعفر الصادق عليه السلام إلى أن تصنيف الناس لا يتحدد بصفة الإيمان أو الكفر، بل إن هناك مجالاً أرحب وأوسع في النظر إلى الناس، فعن الحارث عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سألته: بين الإيمان والكفر منزلة؟ فقال: نعم، ومنازل لو يجحد شيئاً منها أكبه الله في النار: بينهما ﴿آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ وبينهما ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ وبينهما ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ وبينهما قوله: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾[١٢٧].

وللعلامة الطباطبائي في تفسير الآية الكريمة ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ... ﴾ كلام مهم عميق نقتطف منه ما يلي: وهذا المعنى كما يتحقق فيمن أحيط به في أرض لا سبيل فيها إلى تلقي معارف الدين، لعدم وجود عالم بها خبير بتفاصيلها، أو لا سبيل إلى العمل بمقتضى تلك المعارف للتشديد فيه بما لا يطاق من العذاب، مع عدم الاستطاعة من الخروج والهجرة إلى دار الإسلام، والالتحاق بالمسلمين، لضعف في الفكر أو لمرض أو نقص في البدن أو لفقر مالي ونحو ذلك، كذلك يتحقق فيمن لم ينتقل ذهنه إلى حق ثابت في المعارف الدينية، ولم يهتدِ فكره إليه مع كونه ممن لا يعاند الحق ولا يستكبر عنه

(١٢٥) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة –خطبة ١٨٩.
(١٢٦) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٦٩ ص١٦٥.
(١٢٧) المصدر السابق ص١٦٦.

أصلاً، بل لو ظهر عنده حق اتبعه، لكن خفي عنه الحق لشيء من العوامل المختلفة الموجبة لذلك.

فهذا مستضعف لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً، لا لأنه أعيت به المذاهب بكونه أحيط به من جهة أعداء الحق والدين بالسيف والسوط، بل إنما استضعفته عوامل أخر سلطت عليه الغفلة، ولا قدرة مع الغفلة، ولا سبيل مع هذا الجهل.

ومن هنا يظهر أن المستضعف صفر الكفّ لا شيء له ولا عليه لعدم كسبه أمراً، بل أمره إلى ربه، كما هو ظاهر قوله تعالى بعد آية المستضعفين ﴿فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ورحمته سبقت غضبه[128].

سعة رحمة الله:

بعض الناس يريدون أن يحجّموا رحمة الله تعالى حسب نفسيتهم المحدودة، ونظرتهم الضيقة، فيحكمون على كل من يخالفهم في الدين أو المذهب بالحرمان من الجنة، والدخول في النار، لكن ما نعرفه من سعة رحمة الله تعالى، وواسع عفوه، يجعلنا أكثر تفاؤلاً تجاه مستقبل هؤلاء الناس، الذين خلقهم الله تعالى ليرحمهم ﴿إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[129].

والأحاديث الواردة عن النبي ﷺ وأهل بيته الكرام تعطي المسلم لو تأملها أُفقاً أرحب، ونظرة أوسع، تجاه الناس.

---

(١٢٨) الطباطبائي: السيد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن ج٥ ص٥٣-٥٤.
(١٢٩) سورة هود: الآية١١٩.

ورد في حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته حتى يطمع إبليس في رحمته)[130].

ومع ورود أحاديث كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام حول فرض ولايتهم، وأنها شرط لقبول الأعمال ولدخول الجنة، إلا أنهم من جهة أخرى يؤكدون أن المسألة ترتبط بقضية الجحود والعناد، أي إن من اتضحت له حقيقة ولايتهم، وأتيحت له فرصة التعرف إلى حقهم، ثم أعرض وكابر، فهو مستحق للعذاب والحرمان، أما في غير هذه الصورة فهو مشمول برحمة الله تعالى، كما تتسع له جنته ورضوانه.

يروي الإمام جعفر الصادق عن آبائه عن علي عليه السلام: (إن للجنة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منه شيعتنا ومحبّونا، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت)[131].

وعن زرارة قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: أصلحك الله! أرأيت من صام وصلى واجتنب المحارم وحسن ورعه ممن لا يعرف ولا ينصب؟ فقال عليه السلام: إن الله يدخل أولئك الجنة برحمته[132].

وجاء في حديث أن كامل بن إبراهيم المدني جاء ليسأل الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه هل يدخل الجنة إلا من عرف معرفتك وقال بمقالتك؟ فأجابه ابنه الإمام محمد المهدي عليه السلام مستنكراً قوله: إذن والله

(١٣٠) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧ ص٢٨٧.
(١٣١) المصدر السابق: ص١٥٩.
(١٣٢) المصدر السابق: ص١٦٢.

يقلّ داخلها[١٣٣].

وروي عن الإمام علي عليه السلام: ما هلك من الأمة إلا الناصبين والمكابرين والجاحدين والمعاندين، فأما من تمسك بالتوحيد، والإقرار بمحمد والإسلام، ولم يخرج من الملة، ولم يظاهر علينا الظلمة، ولم ينصب لنا العداوة، فإن ذلك مسلم مستضعف يرجى له رحمة الله.[١٣٤].

منهج الأنبياء والأئمة:

لا يمكن المزايدة على الأنبياء والأئمة عليهم السلام في الإخلاص للدين والحرص عليه، فإذا أردنا الانطلاق من الدين والمبدأ في النظر إلى المخالفين لنا في الدين أو المذهب، فعلينا أن نقرأ منهج المعصومين عليهم السلام، وطريقتهم في التعاطي مع الآخرين، ونستلهم منها الموقف الشرعي السليم. ومن خلال الآيات القرآنية والاحاديث والآثار الواردة يمكننا أن نستنتج المفاهيم التالية:

أولاً: كانوا يلتمسون العذر غالباً لأقوامهم بأنهم جاهلون لا يعلمون الحقائق، وفي حالات محدودة جاء التصريح بأن المخالفين ينطلقون من العناد والمكابرة والجحود.

وفي ذلك درس بليغ لنا بأن لا نتسرع في إساءة الظن بالآخرين، وأن نتفهم ظروفهم التي تجعلهم غير مطلعين على الحقيقة.

لقد آذى المشركون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشد الأذى، ولكنه كان يدعو لهم بالهداية، ويعتذر عنهم بجهلهم. قال القاضي عياض في الشفاء: وروي أنه لما كسرت رباعيته وشجّ وجهه يوم أحد، شقّ ذلك على

(١٣٣) المصدر السابق: ص١٦٣.

(١٣٤) المصدر السابق: ص١٧١.

أصحابه شديداً، وقالوا: لو دعوت عليهم؟ فقال ﷺ: اني لم أُبعث لعاناً ولكني بعثت داعياً ورحمة. اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون. ثم قال القاضي: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم، حتى عفى عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم، فقال: اللهم اغفر أو اهدِ، ثم أظهر سبب الشفقة بقوله: (لقومي) ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال: (فإنهم لا يعلمون)[١٣٥].

وأخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[١٣٦].

ثانياً: النظر إلى المخالفين بإشفاق ومحبة وحرص على مصلحتهم، وليس من خلال حالة كره أو حقد أو انتقام، ولو تأملنا الصورة التالية التي ينقلها القرآن الكريم عن مخاطبة النبي شعيب عليه السلام لقومه، وكيف كانت كلماته مفعمة بالحنان والشفقة عليهم، وإظهار الحرص والرغبة في إنقاذهم من الأخطار والمهالك، يقول تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾[١٣٧] ﴿وَيَاقَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ

(١٣٥) القمي: الشيخ عباس/ سفينة البحار ج٢ ص٦٨١/ الطبعة الأولى الجديدة ١٤١٤هـ دار الأسوة، إيران.

(١٣٦) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري – حديث رقم٣٤٧٧.

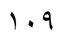
(١٣٧) سورة هود: الآية ٨٤.

هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۞ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[138].

ثالثاً: الاجتهاد في تبليغ الرسالة، وتوضيح الحقيقة للآخرين المخالفين.

إن كثيراً من المتدينين ممن يرسمون في أذهانهم صورة قاتمة عن الآخرين، ويحكمون عليهم بالنار والعذاب، إنما يخلقون بينهم وبين الآخرين حاجزاً نفسياً، يمنعهم من الانفتاح عليهم، والسعي لهدايتهم، وتبيين ما يعتقدونه حقاً لهم. وقد يبررون لأنفسهم التقاعس والتقصير في العمل بهذه النظرة السوداء التشاؤمية تجاه الآخرين.

(١٣٨) سورة هود: الآيتان٨٩-٩٠.



ذوو الرأي ومسؤولية الحوار

لكي تتجاوز شعوبنا حالة التنافر السائدة في علاقات فئاتها وتجمعاتها مع بعضها بعضاً، وتصل إلى مستوى الانفتاح والتواصل والتعاون، لا بد من إطلاق عملية حوار مفتوح جاد، يستهدف التعرف المباشر من كل جهة على الأخرى، بدل الاعتماد على المعلومات غير الدقيقة والشائعات والمواقف المسبقة، ويتوخى اكتشاف القواسم المشتركة، والتركيز على المصالح العليا للأمة، ومواجهة التحديات الخطيرة للمجتمع والوطن.

فبينما تفرض العولمة نفسها على الحياة، ويتحول العالم إلى قرية صغيرة واحدة، تتضاءل فيها تأثيرات الحدود الجغرافية والسياسية، لا يصح لنا أن نحافظ على هذه الحواجز والجدران المعززة بالعوازل، لكي تفصل بين أبناء هذه الأمة، تحت عناوين قومية أو مذهبية أو حزبية أو قبلية.

ومن اللافت للنظر أن تكون خطوط الاتصال بين كل فئة منا والعالم أكثر منها مع أبناء محيطها وشركائها في الدين والوطن.

والحوار بعد ذلك فريضة يلزمنا بها ديننا، الذي يأمرنا بالتثبت في أحكامنا وآرائنا، ومواقفنا تجاه الآخرين، فلا يصح لنا أن نكوِّن صورة

للآخر عن طريق الظنون والشائعات ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(١٣٩). ولا أن نستقي معلوماتنا عن بعضنا بعضاً من مصادر وجهات غير موثوقة تزرع بيننا الفتن والعداوات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾(١٤٠).

والمسلم الملتزم هو من يتقصَّد الاطلاع على وجهات النظر، ويسعى للتعرف إلى الآراء، بحثاً عن الحقيقة ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞.الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١٤١).

وواضح أن استخدام صيغة ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ في الآية الكريمة بدل يسمعون، تشير إلى نوع من العناية والقصد.

ولكن.. من يطلق عملية الحوار؟ وعلى من تقع مسؤولية المبادرة إلى تفعيله؟

يبدو لي أن المفكرين وذوي الرأي من أبناء الأمة، هم الشريحة التي يجب أن تتحمل هذه المسؤولية، فلأنهم أصحاب رأي وفكر يفترض أن يكونوا أكثر إدراكاً لعمق التحديات التي تعيشها الأمة وأقدر على إدارة الحوار بموضوعية وإخلاص.

كما أن موقعيتهم تتيح لهم فرصة التأثير في أوساط الفئات التي ينتمون إليها، وتوجهات الرأي العام.

---

(١٣٩) سورة الإسراء: الآية٣٦.

(١٤٠) سورة الحجرات: الآية٦.

(١٤١) سورة الزمر: الآيتان ١٧-١٨.

فلو بادر بعض ذوي الرأي من كل جهة للانفتاح على أمثاله من الجهة الأخرى، ومناقشة موضوع العلاقات الداخلية بين الجهات والفئات، وكيفية تأطيرها في الإطار الإسلامي والوطني، لقطعت مجتمعاتنا شوطاً متقدماً على طريق الوحدة والانسجام والتعاون، ولوفرّنا على أمتنا خسائر القطيعة والنزاع والاحتراب.

ونقصد بذوي الرأي أصحاب الكفاءة العلمية والفكرية ممن يمارسون دور التوجيه والتأثير في المجتمع كعلماء الدين، والمفكرين المنتجين، والقيادات الاجتماعية.

إن تقاعس ذوي الرأي الغُيَر على مصلحة الدين والوطن عن المبادرات الإيجابية، وعن رفع الصوت عالياً بالدعوة إلى الانفتاح والحوار، هو الذي يفسح المجال ويترك الساحة فارغة لأصوات دعاة الكراهية والمتطرفين من الجهات المختلفة.

ونتساءل هنا: لماذا تنعدم في الساحة ـ أو تقل ـ مبادرات ذوي الرأي في الانفتاح على بعضهم بعضاً، والتحاور من أجل رأب الصدع، والاهتمام بالمصلحة العامة، متجاوزين انتماءاتهم الفكرية والاجتماعية؟

وفي الجواب عن هذا التساؤل يمكن القول: إن هناك مجموعة من الأسباب والعوامل تضعف توجه ذوي الرأي وتقلل مبادراتهم باتجاه الحوار، ومن أبرزها كلمتان:

١/ ضعف الاهتمام بالشأن العام:

إذا وفقّ الله تعالى الإنسان لنصيب من العلم والمعرفة، وقدر من الوعي والخبرة، فإنه بالدرجة نفسها يكون مسؤولاً عن توظيف ذلك في

خدمة المجتمع والمصلحة العامة، لكن بعض ذوي الرأي يعيشون همومهم الخاصة، ويسعون لتأمين مصالحهم الذاتية. وإذا كان الحوار والانفتاح على الآخر لا يحقق كسباً شخصياً، فإنه لا يكون من دائرة اهتماماتهم، ولا ضمن سلّم أولوياتهم.

لقد طرحت على أحد علماء الدين، موضوع علاقته مع عالم آخر، يختلف معه في التوجه، ويعمل معه في الساحة الاجتماعية نفسها، فأجابني قائلاً: لا أجد نفسي بحاجة للعلاقة معه، فأموري ماشية وأوضاعي مرتبة!!

وهذا هو منطق الكثيرين من علماء الدين أو المفكرين في مجتمعاتنا، إنه لا يشعر بحاجة شخصية، ولا يتوقع مكسباً ذاتياً، من خلال الانفتاح على الآخر والحوار معه. ولكن ماذا عن المصلحة العامة؟

إنك قد لا تكون محتاجاً للآخر على المستوى الذاتي الشخصي، وهو قد لا يكون محتاجاً لك كذلك، ولكن الوطن والمجتمع يحتاج إلى تلاقح الآراء، وتظافر الجهود، وسد ثغرات الفتن والنزاع، وترسيخ الوحدة الوطنية والاجتماعية.

٢/ مشاعر الاستعلاء أو الرهبة:

حينما يكون ذو الرأي في موقع متقدم، من حيث القوة أو المنصب، أو الإمكانات المادية والاجتماعية، فإنه قد يهيمن عليه شعور بالاستعلاء والتفوق على أمثاله من ذوي الرأي الذين لا يصلون إلى مستوى مكانته وقدرته، فيعزف عن الانفتاح عليهم، ويترفع عن الحوار معهم، لأنه لا يجدهم أنداداً، ويرى أن عليهم الخضوع له والإقرار بأحقيته وأفضليته.

وقد لا يكون ذو الرأي شخصياً في موقع قوة، لكن انتماءه إلى فئة تكون في موقع القوة، يكفي لمنحه ذلك الشعور بالاستعلاء.

وعلى العكس من ذلك، فقد يكون الشعور بالضعف والرهبة من الطرف الآخر، هو الآخر سبباً للعزوف عن الانفتاح والحوار، فمن لا يكون واثقاً من نفسه أو من علمه ورأيه، فإنه يتلكأ في التواصل مع الآخرين، خوفاً من ظهور ضعفه، أو رهبة من احتوائهم له. أو أن يفتح ذلك منافذ للتأثير على جمهوره وقاعدته.

٣/ التصنيف والأحكام المسبقة:

في أجواء التشنج والخصام، وحينما تتضخم مسائل الخلاف، يصنّف الناس بعضهم بعضاً تصنيفاً حاداً، ويصدرون على بعضهم البعض أحكاماً غيابية قاسية، فهذا كافر، وهذا مشرك، وهذا مبتدع، وهذا فاسق، وهذا رافضي، وهذا علماني، وهذا عميل!!! وحتى تقليد المراجع تحوّل إلى سبب للتصنيف ينظر إلى الناس من خلاله، هذه التصنيفات الحادّة، وما تستبطنه من أحكام قاسية، ثم التسرع في وضع الناس ضمن هذه الخانات والقوالب الضيقة، كل ذلك يمثل حالة متخلفة تهدم الثقة بين أبناء الأمة، كما لا تنسجم مع سماحة الإسلام، وأُفقه الأخلاقي الواسع.

وأين هؤلاء المتسرعون في تكفير الناس واتهامهم في دينهم من قول الله تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[١٤٢].

---

(١٤٢) سورة النساء: الآية ٩٤.

يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:

« وقد دلت الآية على حكمة عظيمة في حفظ الجامعة، وهي بث الثقة والأمان بين أفراد الأمة، وطرح ما من شأنه إدخال الشك لأنه إذا فتح هذا الباب عسر سدّه، وكما يتهم غيره فللغير أن يتّهم من اتّهمه، وبذلك ترتفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق، إذ قد أصبحت التهمة تظلُّ الصادق والمنافق، وانظر معاملة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنافقين معاملة المسلمين. على أن هذا الدين سريع السريان في القلوب فيكتفي أهله بدخول الداخلين فيه من غير مناقشة، إذ لا يلبثون أن يألفوه، وتخالط بشاشته قلوبهم، فهم يقتحمون على شك وتردد فيصير إيماناً راسخاً، ومما يعين على ذلك ثقة السابقين فيه باللاحقين بهم » (١٤٣).

وينقل ابن ابي شيبة في مصنفه أنه: سئل علي عن أهل الجمل ـ الذين تمردوا عليه فحاربهم ـ قال: قيل: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا. قيل: أمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا. قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا(١٤٤).

وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ما يؤكد مضمون هذه الرواية حيث يروي عن أبيه عليه السلام: أن علياً عليه السلام لم يكن ينسب أحداً من أهل حربه إلى الشرك ولا إلى النفاق، ولكنه كان يقول: هم إخواننا بغوا علينا(١٤٥).

---

(١٤٣) ابن عاشور: محمد الطاهر/ تفسير التحرير والتنوير ج٥ ص١٦٨.

(١٤٤) ابن أبي شيبة: الحافظ أبو بكر/ الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار ج١٥ ص٢٥٦ خبر رقم ١٩٦٠٩ الطبعة الأولى١٩٨٣م الدار السلفية/ الهند.

(١٤٥) الحر العاملي: محمد بن الحسن/ تفصيل وسائل الشيعة ج١٥ ص٨٣ الطبعة الأولى١٩٩٣م مؤسسة آل البيت لإحياء التراث- بيروت.

وحينما يصنف الإنسان الآخرين عدائياً، ويحكم عليهم بالإدانة سلفاً، فإنه بالطبع لا يندفع للانفتاح عليهم والحوار معهم.

ولكن حتى إذا غضضنا النظر عن خطأ التصنيف والحكم المسبق، فإنه لا يصح أن نتجاهل أن تطوراً واضحاً في مستوى الوعي، والثقة بالذات، والاستقلالية في الرأي، قد حصل في ساحة المجتمع، نتيجة للتطورات العلمية والاجتماعية، وهذا يعني أن الأيديولوجيات والمذاهب والمدارس الفكرية، ما عادت تحكم سيطرتها في جميع الآراء والمواقف على المنتمين لها، لذا لا يصح أن تحاكم شخصاً أو تدينه من خلال ما تكونه من انطباع عن الاتجاه أو الجهة التي ينتمي إليها، فالأحكام التعميمية والشمولية الكاسحة لم تعد دقيقة ولا صائبة.

ثم إن كون الآخر منتمياً لهذا الاتجاه أو ذاك، ومهما كان تصنيفك له، فإنه لا يصح أن يمنعك من إشادة جسر العلاقة الإنسانية والاجتماعية معه، وخاصة مع وجود مصلحة مشتركة، ولقد عاهد رسول الله ﷺ يهود المدينة ونصارى نجران، وتعاطى الخلفاء من بعده مع مختلف أتباع الديانات، وكانت تحصل اللقاءات والحوارات بين زعاماتهم والقيادات الإسلامية، ويكفينا قوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [146].

٤/ ضغوط التعبئة الجماهيرية:

يبالغ بعض القادة الدينين أو المفكرين أحياناً في تعبئة جمهوره ضد الرأي الآخر والطرف الآخر، وإلصاق مختلف التُّهم والعيوب فيه،

---

(١٤٦) سورة الممتحنة: الآية٨.

والتشكيك في نياته وأصله وفصله، ويرتب على ذلك تحريم وتجريم أي نوع من التواصل معه، أو التعاطي حتى في الحدود الإنسانية الدنيا.

ويحصل حتى ضمن المذهب الواحد، أن يعبأ المنتسبون لمرجع معيّن جمهورهم ضد أتباع مرجع آخر بحيث لا يتواصلون ولا يأتّمون ببعضهم في صلاة الجماعة، ولا يتعاونون في مشاريع مشتركة.

إن مثل هذه التعبئة تصبح أسراً وقيداً على حركة منتجيها، ويجعل من الصعوبة بمكان أن يتجرؤوا على الانفتاح على الطرف الآخر أو الحوار معه لأن جمهورهم قد تربى على منحى مخالف.

ولا أدري، ما هو المبرر الشرعي لهؤلاء في تربية جمهورهم على الأحقاد والأضغان، وسوء الأخلاق؟ مع أن القرآن الكريم يأمر المسلمين أن يتعاملوا مع الكفار المشركين بالتي هي أحسن، لإظهار وجه الإسلام الحضاري الإنساني، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[(١٤٧)].

إن التعامل الحسن مع الآخرين يساعدك على استقطابهم والتأثير فيهم، بينما إساءة التعامل والأخلاق تنفّر الآخرين من الحق الذي تحسب نفسك داعية له!!

كما يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يستقبلوا الناس كل الناس بحسن المعاشرة وطيب الكلام، يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[(١٤٨)] وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول عالم نجد الشيخ عبد

---

(١٤٧) سورة فصّلت: الآية ٣٤.

(١٤٨) سورة البقرة: الآية ٨٣.

الرحمن السعدي: « ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً، فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب. ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى الكفار »[١٤٩].

٥/ مراكز القوى:

هناك مراكز قوى خارجية وداخلية لا يعجبها أن تسود أجواء الوئام والانسجام في شعوب الأمة، ولا أن تتصلب الوحدة الوطنية في بلاد المسلمين، لذلك تستخدم كل أساليبها ووسائلها للإبقاء على حالة التفرقة والنزاع، ولمنع أي تقارب جادّ بين الجهات والاتجاهات المختلفة.

تلك هي أبرز العوامل ـ فيما يبدو لي ـ، التي تعيق انطلاق مبادرات الانفتاح والحوار بين ذوي الرأي من علماء ومفكري هذه المجتمعات، لكنّ الواعين المخلصين قادرون على تجاوزها بإذن الله تعالى.

لقد آن أن يتحمل ذوو الرأي في مجتمعاتنا وخاصة علماء الدين مسؤليتهم في تجاوز حالة القطيعة مع بعضهم بعضاً، وأن يتحلوا بالجرأة والشجاعة في الانفتاح والحوار، وأن ينقذوا المجتمع من مشاكل الصراع والنزاع، فالتحديات والأخطار التي تواجهها أجيالنا المعاصرة، أكبر من القضايا الجانبية التي يتم على أساسها التصنيف والافتراق.

---

(١٤٩) السعدي: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر/ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٦٦/ دار الذخائر- مؤسسة الريّان- بيروت١٩٩٧م.

الفصل الثالث

من أجل علاقات أفضل:

احترام مشاعر الناس

احترام الناس من أهم العبادات

النجاح في العلاقات

الاعتذار من الخطأ سلوك حضاري

بين الحقوق والواجبات

احترام مشاعر الناس

لشخصية الإنسان صورتان:

الأولى: مادية تتمثل في جسمه المكوّن من لحم ودم وعظم..

الثانية: معنوية تتجلى في مكانته الاعتبارية عند الناس، وما تنطوي عليه نفسه من عواطف ومشاعر وأحاسيس.

وكما أن للجانب الأول من شخصية الإنسان حدوداً وحقوقاً تجب مراعاتها واحترامها، فلا يصح الاعتداء على جسمه بالقتل أو الضرب أو الجرح، ولا الاعتداء على أمواله وممتلكاته بالنهب أو السرقة أو الغصب.

كذلك فإن للجانب المعنوي حرمة وحصانة، فلا يجوز اسقاط الشخصية الإعتبارية للإنسان، بتشويه سمعته، ولا يجوز خدش عواطفه ومشاعره وأحاسيسه.

وإذا كان متعارفاً بين الناس رعاية الحرمات المادية، فلا يضرب أحدٌ أحداً أو يجرحه، ولا ينهب منه ماله أو يسرقه، إلا ضمن حالات الخصام أو الإجرام، وهي محدودة شاذّة، فإن رعاية الحرمات المعنوية لا تحظى بالاهتمام المطلوب، وغالباً ما تنتهك وتتجاوز، حتى في أوساط المتدينين والملتزمين.

فبعض المتدينين يحسب ألف حساب قبل أن تمتد يده لخدش جسم إنسان آخر، أو لأخذ فلس واحد من مال الغير، ولكنه قد لا يتردد كثيراً في جرح مشاعر الآخرين، وإيذاء أحاسيسهم وعواطفهم.

إن جراحات الجسم يظهر أثرها فوراً بشكل واضح من خروج دم، أو حدوث كسر، أو تغيّر لون. لكن جراح المشاعر تكون في أعماق النفس، وتختمر تفاعلاتها وتتأجج في قلب الإنسان، بعيداً عن المشاهدة والعيان. وهي بذلك أشد إيلاماً، وأقسى وقعاً، ونتائجها أسوأ وأخطر. وقد تتحول إلى عقد متراكمة، وأحقاد مضطرمة، تتفجر في المحيط الاجتماعي ناشرة الويل والدمار.

لذلك يقول الإمام علي عليه السلام: «رُبّ كلام كالحسام»، «رُبّ كلام أنفذ من سهام»، «زلة اللسان أشدّ من جرح السنان»، «طعن اللسان أمضى من طعن السنان»[١٥٠].

وقال الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

ولو خيّرت أي إنسان بين جرح جسمه أو جرح كرامته، لما اختار الثانية على الأولى إن كان مستقيماً سويًّا. ومشاعر الإنسان رقيقة شفافة تحتاج إلى دقة في المراعاة والاحترام.

من هنا ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في تعريف المسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[١٥١].

---

(١٥٠) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

(١٥١) الهندي: علي المتقي/ كنز العمال ج١ ص١٤٩.

فالمسلم الحقيقي هو من لا يعتدي على شيء من حقوق الآخرين المعنوية أو المادية، ونجد أن الحديث الشريف قدّم الحرمة المعنوية على المادية، حيث قال: «من لسانه» أولاً، واللسان هو أداة التجريح المعنوي.

«والمراد بالمسلمين هنا كل الناس، وإنما خص المسلمين بالذكر، لأن الحديث صدر في بيئة إسلامية، ويدل على إرادة العموم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (١٥٢) هذا إلى جانب الأحاديث الكثيرة الآمرة بكف الأذى عن الناس إطلاقاً» (١٥٣).

التخاطب مع الناس:

التخاطب هو وسيلة التواصل بين الناس، وتبادل الآراء والأفكار، والتعبير عن المشاعر والأحاسيس، فبكلامك يعرف الآخرون ما يدور في عقلك، وما تنطوي عليه نفسك تجاههم. يقول الإمام علي عليه السلام: «صورة الرجل في منطقه» (١٥٤).

والخطاب هو المرآة التي تكشف نظرتك للناس، وموقفك نحوهم، وهو أداة التعامل مع المشاعر والعواطف. فاحترامك للناس ينعكس على تخاطبك معهم، وكلامك إياهم. لأن الكلمة الطيبة تشرح النفوس، وتسر القلوب، يقول الإمام علي عليه السلام: «ما من شيء أجلب لقلب الإنسان من لسان» (١٥٥).

---

(١٥٢) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(١٥٣) مغنية: محمد جواد/ في ظلال نهج البلاغة ج٢ ص٤٨٩ الطبعة الثالثة ١٩٧٩م دار العلم للملايين - بيروت.

(١٥٤) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٦٨ ص٢٩٣.

(١٥٥) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم.

وعلى العكس من ذلك: الكلمة السيئة فإنها تجرح المشاعر، وتمزق العواطف.

لذلك تؤكد التعاليم الدينية ضرورة الحرص على انتقاء أفضل الكلمات، وأجمل التعبيرات، وأحسن الألفاظ، عند التخاطب مع الناس. ففي القرآن الكريم آيات عديدة تحدد المواصفات التي يجب أن يتسم بها الخطاب مع الناس، نستعرض بعضاً منها:

١ـ **القول المعروف**: عليك أن تتحدث مع الآخرين بما ترتاح له نفوسهم، وأن تبتعد عن كل كلمة تسبب الازعاج والنفور. وحتى عند مَنْ يعانون نقصاً أو ضعفاً في شخصيتهم لصغر سنهم أو خفة عقلهم، فإن الإسلام يسلبهم حق التصرف في أموالهم، حفاظاً على مصلحتهم، لأنهم سيهدرون ثرواتهم وإمكاناتهم في غير مصارفها الصحيحة، لكن الولي عليهم، والمسؤول عن حفظ وإدارة أموالهم، يجب أن يتخاطب معهم بلطف واحترام، وبالكلام المقبول. يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ [١٥٦].

فكونه غير ناضج، ولا يوثق بسلامة تصرفه في ماله، لا يعني التجاهل لمشاعره وعواطفه. وكما يقول العلامة الطباطبائي: «فإن هؤلاء وإن كانوا سفهاء محجورين عن التصرف في أموالهم، غير أنهم ليسوا حيواناً أعجم، ولا من الأنعام السائمة بل بشر يجب أن يعامل معهم معاملة الإنسان، فيكلموا بما يكلم به الإنسان لا بالمنكر من القول»[١٥٧].

---

(١٥٦) سورة النساء: الآية٥.

(١٥٧) الطباطبائي: السيد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن ج٤ ص١٧٢.

وتكرر الأمر بالقول المعروف في عدة آيات أخرى: ﴿إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ [158]﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ [159].

٢ـ القول السديد: فالإنسان الذي يخشى ربه، عليه أن يحسب حساباً لكلامه مع الناس، فالكلام السيء المسيء مخالف لتقوى الله، والمتقي لله يتكلم مع الناس برزانة واحترام. يقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [160].﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [161] والقول السديد هو الصواب المحكم الذي لا خلل فيه ونلحظ في الآيتين الكريمتين الارتباط بين تقوى الله والقول السديد.

٣ـ القول الميسور: والضعيف الذي يقصدك في حاجة، أو يطلب منك مساعدة أو معونة، وأنت لا تستطيع الاستجابة له، فعليك أن تقابله بالكلام الرقيق الجميل ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ [162]. و« ميسور » مشتقة من « يسر » وهي بمعنى الراحة والسهولة، ويشمل كل كلام جميل وسلوك مقرون بالاحترام والمحبة.

وحتى لو كان هذا السائل المحتاج ملحاحاً فلا تجابهه بالخشونة والغلظة ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ [163].

٤ـ القول الحسن والأحسن: أساساً ينبغي للإنسان أن لا يتلفظ للآخرين وعنهم بكلام سيء، بل يلتزم بابداء القول الجميل مع كل

(١٥٨) سورة البقرة: الآية٢٣٥.
(١٥٩) سورة الأحزاب: الآية٣٢.
(١٦٠) سورة الأحزاب: الآية٧٠.
(١٦١) سورة النساء: الآية٩.
(١٦٢) سورة الإسراء: الآية٢٨.
(١٦٣) سورة الضحى: الآية١٠.

الناس، يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[164]. بل عليه أن يسعى لاختيار أحسن القول والكلام، وأن ينتقي أجمل العبارات أسلوباً ومحتوى ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[165].

وحتى مع المناوئين والمخالفين في الدين، يجب الحرص على أدب التخاطب والتحادث معهم، ليكون على أفضل وجه، ومن لا يجد في نفسه القدرة على المناقشة للآخرين بأحسن أسلوب، فليترك هذه المهمة لغيره. يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[166].

هكذا يحدِّد القرآن الكريم سمات الخطاب والحديث مع الناس، بأن يكون خطاباً معروفاً سديداً ميسوراً حسناً.

الكلام الجارح:

في حالات الغضب والانفعال، وفي مواقع القدرة والقوة، على الإنسان أن يكون أكثر سيطرة على لسانه، وتحكماً في حديثه وكلامه، ولا تتأتى هذه الملكة والصفة للإنسان إلا إذا درّب نفسه وعودها على أمرين أساسيين:

الأول: التفكير قبل الكلام، فلا يتكلم اعتباطاً وارتجالاً، ولا تستدرجه الإثارات والانفعالات، بل يتأمل ويتدبر فيما يريد قوله. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه، وإن لسان المنافق أمام قلبه،

(١٦٤) سورة البقرة: الآية٨٣.

(١٦٥) سورة الإسراء: الآية٥٣.

(١٦٦) سورة العنكبوت: الآية٤٦.

فإذا همّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه» [١٦٧].

وفي أكثر من آية في القرآن الكريم يصف الله تعالى عباده الصالحين بأنهم لا يستجيبون لإثارات الكفار والجاهلين، حينما يشتمونهم ويسبونهم، بل يتسامى المؤمنون عن الانحدار والإسفاف إلى مستوى الجهل والكلام السيء. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[١٦٨] واللغو هو الساقط من القول، والمقصود به هنا: الشتم والأذى من الكفار. وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾[١٦٩] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾[١٧٠].

الآخر: أن يجعل الإنسان نفسه مقياساً، فيضعها مكان الطرف الآخر، فلا يقول للآخرين كلمة حتى يستفتي مشاعره وعواطفه نحوها، هل يرتضيها هو لنفسه؟ وهل يقبل أن تقال له أم لا؟

يقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم» [١٧١].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، وأحبّ لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، لا تظلم كما لا تُحب أن تُظلم، وأحسن كما تُحبّ أن يُحسن إليك، واستقبح

---

(١٦٧) الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد/ إحياء علوم الدين ج٣ ص١١٠/ دار المعرفة- بيروت.

(١٦٨) سورة القصص: الآية٥٥.

(١٦٩) سورة الفرقان: الآية٧٢.

(١٧٠) سورة الفرقان: الآية٦٣.

(١٧١) المجلسي: محد باقر/ بحار الأنوار ج٦٨ ص٣١٠.

لنفسك ما تستقبحه من غيرك، وأرض من الناس ما ترضى لهم منك » [١٧٢].

جاء في السيرة النبوية أن النبي ﷺ سخط على أحد أصحابه المجاهدين لأنه تلفظ بكلام جارح لأحد المشركين ردًّا على استهزائه برسول الله ﷺ. وذلك في الطريق إلى بدر أولى معارك الإسلام الفاصلة، لقي المسلمون رجلاً من الأعراب، فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبراً، فقال له الناس: سلم على رسول الله ﷺ، قال: أوَفيكم رسول الله؟ قالوا: نعم، فسلّم عليه، ثم قال: إن كنت رسول الله فاخبرني عما في بطن ناقتي هذه. قال له سلمة بن سلامة بن وقش: لا تسأل رسول الله، وأقبل عليّ فإنا أخبرك عن ذلك، نزوت عليها، ففي بطنها منك سخلة، فقال رسول الله ﷺ: مه، أفحشت على الرجل، ثم أعرض عن سلمة[١٧٣].

هكذا لم يرضَ رسول الله ﷺ بصدور كلام بذيء وإن كان لمشرك مستهزئ بالرسول ﷺ.

وسمع الإمام علي عليه السلام قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم بصفين، فقال لهم:

« إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم،

---

(١٧٢) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة/ كتاب رقم٣١.

(١٧٣) ابن هشام: عبد الملك المعافري: السيرة النبوية ج٢ ص١٨٧ دار الجيل- بيروت.

واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغـي والعدوان من لهج به» [١٧٤].

ونقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة أنه: خرج حِجر بـن عدي وعمرو بن الحمق يظهران البراءة من أهـل الشـام، فأرسـل علـي عليه السلام إليهما: أن كُفّا عما يبلغني عنكما، فأتيـاه فقـالا: يـا أمـير المـؤمنين ألسنا محقّين؟

قال: بلى.

قالا: أوليسوا مبطلين؟

قال: بلى.

قالا: فلم منعتنا من شتمهم؟

قال: كرهت لكم أن تكونوا لعّانين شـتّامين تشـتمون وتتـبرأون، ولكنكم لو وصفتم مساوئ أعمالهم فقلتم: من سيرتهم كذا وكذا، ومن أعمالهم كذا وكذا، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان لعنكم إياهم، وبراءتكم منهم: اللهم أحقن دمـاءهم ودماءنـا، وأصـلح ذات بينهم وبيننا، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهلـه، ويرعوي عن الغي والعدوان منهم من لهج به، لكان أحبَّ إلـيّ، وخـيراً لكم.

فقالا: يا أمير المؤمنين، نقبل عظتك، ونتأدب بأدبك[١٧٥].

لاحظوا أن المسألة ليست أن هذا الطرف يستحق السـب واللعـن

(١٧٤) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة/ باب الخطب ١٩٩.

(١٧٥) ابن أبي الحديد: عبد الحميد/ شرح نهـج البلاغـة ج٣ ص١٨١ دار إحيـاء التراث العربي-بيروت/ الطبعة الثانية ١٩٦٥م.

أم لا يستحق، وإنما يجب النظر في الانعكاسات والآثار التي يخلفها ذلك على مشاعر الآخرين وعواطفهم، وإلاّ فإن أحداً لا يشك في سوء مصير أبي جهل، وكونه من أهل النار، لكن رسول الله ﷺ بعد أن دخل مكة فاتحاً هرب منها عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن، خوفاً من أن يقتله رسول الله ﷺ ، وكانت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة لها عقل وكانت قد اتبعت رسول الله ﷺ ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن ابن عمي عكرمة قد هرب منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فآمنه، قال ﷺ: قد آمنته بأمان الله فمن لقيه فلا يتعرّض له، فخرجت زوجته في طلبه، فأدركته في ساحل من سواحل تهامة، وقد ركب البحر، فجعلت تلوح إليه وتقول: يا ابن عم جئتك من عند أوصل الناس وأبرّ الناس وخير الناس، لا تهلك نفسك وقد استأمنت لك فآمنك، فقال: أنت فعلت ذلك؟ قالت: نعم أنا كلمته فآمنك.

فرجع معها فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: يأتيكم عكرمة مهاجراً فلا تسبّوا أباه فإن سبّ الميت يؤذي الحي ولا يبلغ[١٧٦].

وفي النصوص والتعاليم الدينية نهي وتحذير عن كل ألوان الكلام الجارح من سب أو شتم أو تعيير أو سخرية وتحقير أو غيبة وبهتان..

حسن الاستقبال والتعامل:

الإنسان كتلة من العواطف والمشاعر والأحاسيس، تعصف به التقلبات، وتعرض عليه الانفعالات، كما تضغطه مشاكل الحياة، وعلاقته مع أبناء جنسه هي ملاذه وملجؤه، فإذا توفر له المحيط

---

(١٧٦) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٢١ ص١٤٤.

الاجتماعي الصالح، الذي يتعامل معه بالاحترام والتقدير، ويساعده على امتصاص واستيعاب تأثيرات ضغوط الحياة والتوترات النفسية، ويرفع معنوياته في مقابل المشاكل والأزمات، عندها يجد الكثير من الراحة والسعادة.

أما إذا عاش في وسط اجتماعي يفتقد أجواء المحبة والودّ، ويعاني من الجفاء والجفاف العاطفي والأخلاقي، فإن ذلك سيضاعف عليه العناء، ويملأ حياته ونفسه بالألم والشقاء.

إنك حينما ترى إنساناً، عليك أن تنفذ إلى ما وراء جسمه ومظهره، وتضع في بالك حالته النفسية، وكيانه العاطفي، وتتعاطى مع أحاسيسه ومشاعره، بما يستلزم ذلك من رقة ومحبة واحترام.

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن العلاقات الاجتماعية داخل مجتمع المؤمنين يصفهم بأنهم: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [١٧٧] أي يرحم بعضهم بعضاً.

ويشير الإمام جعفر الصادق عليه السلام إلى دفء العلاقة التي يجب أن تكون بين المؤمنين، وما يوفره كل واحد منهم للآخر من راحة نفسية فيقول: «إن المؤمن ليسكن إلى المؤمن كما يسكن الظمآن إلى الماء البارد» [١٧٨].

وتقدم التعاليم الإسلامية توجيهات مفصلة شاملة لجميع جوانب التعاطي والتعامل بين أبناء المجتمع على أساس من الاحترام والمحبة والاهتمام. بدءاً من السلام وإلقاء التحية، أو إجابتها بأفضل منها، إلى

---

(١٧٧) سورة الفتح: الآية٢٩.

(١٧٨) الكليني: محمد بن يعقوب بن إسحاق/ الأصول من الكافي ج٢ ص٢٤٧.

المقابلة بالبشاشـة والاستبشـار، إلى الإفسـاح لـه في المجلـس، والإصـغاء لحديثه، ومواساته والتعاطف معه في همومه، ومساعدته وقضاء حاجتـه.. إلى العشرات من النقاط والتوصيات التي تصنع أفضـل علاقـة، وتـوفّر أجمل رعاية للمشاعر والأحاسيس.

احترام الناس من أهم العبادات

للدين مهمتان رئيستان في حياة الإنسان:

الأولى: تنظيم علاقة الإنسان مع ربه، بأن يتعرف إلى خالقه، ويؤمن به وبوحدانيته، ويلتزم بعبادته والخضوع له. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ﴾[179].

الأخرى: تنظيم علاقة الإنسان مع أبناء جنسه، بحيث تكون قائمة على العدل، والاحترام المتبادل للحقوق ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[180].

فعلاقة الإنسان مع الناس قضية جوهرية من صميم الدين، وهي ليست متروكة لمزاج الإنسان وأهوائه، فلست حراً في أن تتعامل مع الآخرين كما تحب وتشاء، بل أنت مقيَّد بضوابط شرعية تلزمك بمراعاة حقوق الآخرين، واحترام مصالحهم المادية والمعنوية.

وإذا آمن الإنسان بربه والتزم أداء الواجبات العبادية لله من صلاة

(١٧٩) سورة النحل: الآية ٣٦.

(١٨٠) سورة الحديد: الآية ٢٥.

وصوم وحج وما شابه، فإن ذلك لا يحقق له حالة التديُّن، ولا يوفر فيه مصداقية العبودية لله تعالى، ما لم يقترن بحسن علاقته مع الناس، وأدائه لحقوقهم.

فكما أمرك الله تعالى بالصلاة والصيام وسائر العبادات، أمرك أيضاً بالعدل والاحسان، والتعامل الصحيح مع المحيط الاجتماعي، ولا يصح لك أن تأخذ بجزء وتترك الجزء الآخر.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١٨١).

ثم إن الإيمان بالله، وأداء الشعائر والعبادات، ثمرتهما ونتيجتهما يجب أن تظهر وتنعكس على سلوك الإنسان وتعامله مع الناس، والاّ فما جدوى ذلك الإيمان الذي لا يردع عن الظلم؟ وما قيمة تلك العبادة التي لا تدفع إلى الخير؟

الإساءة إلى الغير ظلم عظيم:

في رؤية الدين لا شيء أسوأ من أن يعتدي الإنسان على حقوق الآخرين، أو يسيء إليهم مادياً أو معنوياً، إن الله تعالى قد يغفر للإنسان إذا ما قصّر أو أخطأ تجاه خالقه شرط التوحيد ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١٨٢). ولكنه تعالى لا يتساهل ولا يغفر للإنسان تقصيره وخطأه تجاه الآخرين.

ويصنّف الإمام علي عليه السلام أنواع الظلم إلى ثلاثة أصناف، ويَعُدُّ أن ظلم الناس هو الظلم الأخطر بعد الشرك بالله تعالى يقول عليه السلام:

(١٨١) سورة النحل: الآية ٩٠.

(١٨٢) سورة النساء: الآية ٤٨.

« ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله... وأما الظلم الذي يغفر، فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات، وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص هناك شديد » (١٨٣).

ويقول عليه السلام في كلمة آخرى: « من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ».

إن إيذاء أي إنسان بجرح مشاعره أو إهانة كرامته، أو تشويه سمعته، يَعُدُّ ظلماً لا يترك، بل يحاسب عليه الإنسان يوم القيامة حساباً عسيراً.

والإساءة إلى الغير قد تكون بكلمة أو تكون بحركة وتصرف معيَّن، فقد ورد أن رجلاً ثرياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان يلبس ثياباً أنيقة، فجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم جاء رجل فقير ثيابه رثّة قديمة، فجلس إلى جنب الثري، فقام الثري بحركة لفتت انتباه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حيث قبض ولمّ ثيابه من تحت فخذيه، حتى لا تلامس شيئاً من ثياب ذلك الفقير.

فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: أخِفْتَ أن يمسَّك من فقره شيء؟

قال: لا.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: فخفت أن يصيبه من غناك شيء؟

قال: لا.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: فخفت أن يوسّخ ثيابك؟

(١٨٣) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة / حكم ١٧٦.

قال: لا.

قال ﷺ: فما حملك على ما صنعت؟

فاعترف الرجل الثري بخطئه واعتذر من الفقير باذلاً له نصف أمواله، لكن الفقير رفض أن يأخذ منه شيئاً قائلاً: أخاف أن يدخلني ما دخلك[١٨٤].

كان سعد بن معاذ صحابياً جليلاً مجاهداً في سبيل الله حتى أصيب بجرح خطير في المعركة واستشهد بعد فترة من المعاناة والالم، وقد شهد الرسول ﷺ في حقه حين عاده في مرضه قائلاً:

« اللهم إن سعداً قد جاهد في سبيلك، وصدق رسولك، وقضى الذي عليه، فتقّبل روحه بخير ما تقبلت به روحاً» وعند وفاته شارك الرسول في تشييعه ودفنه، ومع هذه المكانة والمنزلة إلا أنه اصابته ضمّة ـأي عصرة في قبره ـ على حدّ قول رسول الله ﷺ لأنه كان في خلقه مع أهله سوء[١٨٥].

فإيمان سعد وجهاده وصحبته للرسول ﷺ وشهادته في سبيل الله كل ذلك لم يسقط عنه جزاء سوء أخلاقه مع أهله وعائلته.

فلنكن حذرين جداً في تعاملنا مع الآخرين، وحتى عوائلنا وأبنائنا، فإننا محاسبون أمام الله تعالى عن تصرفاتنا مع الناس، ولن تغني عنا صلاتنا ولا عباداتنا إذا ما قصرنا أو تجاوزنا على حقوق الآخرين المادية أو المعنوية.

---

(١٨٤) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٢٢ ص١٣١.

(١٨٥) المصدر السابق: ج١ ص٢٢٠.

ممارسات خطأ:

يبالغ بعض المتدينين في أدائهم لبعض الشعائر والأعمال العبادية، بطريقة تسبب إيذاءً ومزاحمة للأخرين، ويتصورون أنهم بتلك المبالغة ينالون الأجر والثواب من الله تعالى، وفي الحقيقة إنهم يحمّلون أنفسهم الوزر والإثم من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

فمثلاً: ما يحدث في الحج من محاولة بعض الحجيج الاقتراب من الكعبة في الطواف أو استلام الحجر الأسود، بطريقة المغالبة والمزاحمة، مما يؤدي إلى الإضرار بالنفس وبالآخرين، وإيذاء الغير حرام بينما تقبيل الحجر الأسود مستحب وكذلك الاقتراب من الكعبة، وهل يصح أداء المستحب بارتكاب المحّرم؟

وقد نجد بعض الناس يحرصون على أن يكونوا في الصفوف الأولى لصلاة الجماعة، وذلك مستحب بلا ريب، وفيه أجر كبير لكنه إذا استلزم إيذاء الآخرين ومدافعتهم، وجرح مشاعرهم، فإنه يتحول إلى سبب للإثم والوزر.

وضمن هذا السياق ما تعارف عليه البعض من رفع صوت المكبرات والسّماعات «الميكرفونات» أثناء تلاوة القرآن، أو قراءة الأدعية، ومجالس العزاء، في أوقات راحة الناس المجاورين للمسجد أو الحسينية أو المنزل مع عدم الحاجة إلى ذلك فالمستمعون عدد محدود داخل المكان، وصوت المكبّرة يخترق المسافات، مما يزاحم راحة المجاورين، وقد يكون فيها مرضى أو أطفال أوما أشبه، أو أن صوت المكبّرة يزاحم مجلساً آخر ومسجداً آخر، فتتعارض الأصوات وتتداخل مما يعطي انطباعاً سلبياً عن الحالة الدينية، وأغلب المساجد في بلادنا يستخدمون مكبّرة الصوت أثناء صلاة الجماعة، بشكل مزعج، رغم

تحذير وزارة الأوقاف من ذلك، حتى أصبح البعض من الناس يهربون من مجاورة المساجد، بسبب ذلك الإزعاج.

إن مثل هذه الممارسات خطأ، يكسب أصحابها الإثم، لأنه لا يطاع الله من حيث يعصى، ولا يرضى الله تعالى بإيذاء الآخرين وإزعاجهم.

بين حقوق الله وحقوق الناس:

يهتم الإنسان المسلم بالتزاماته العبادية مع الله، كالصلاة والصوم والحج... ويحرص على تأديتها حسب الأحكام الشرعية، متقرباً بذلك إلى الله تعالى. وما ينبغي التأكيد عليه هو أن احترام مشاعر الناس، ورعاية حقوقهم المعنوية، لا يقل أهمية عند الله تعالى من تلك العبادات والشعائر الدينية، بل يظهر من بعض النصوص والأحكام أولوية حقوق الناس. كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة على حقوقه، فمن قام بحقوق عباد الله كان ذلك مؤدياً إلى القيام بحقوق الله»(١٨٦).

ونذكر بعض الموارد التي يتبيّن منها موقعية احترام مشاعر الناس في الإطار العبادي.

١ـ إن المبادرة للصلاة إذا حان وقتها أمر مطلوب من الناحية الشرعية وإذا أقيمت الصلاة للجماعة تكون أكثر تأكيداً، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الأحرص على هذه الإلتزامات الشرعية، لكن الرواية الواردة عن أنس رضي الله عنه قال: أقيمت الصلاة ورجل يناجي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما

(١٨٦) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

زال يناجيه حتى نام أصحابه، ثم قام فصلى[187].

٢ـ ويصلي رسول الله ﷺ بالمسلمين جماعة، فيطيل في سجوده أكثر من المعهود فيسأله القوم بعد الصلاة: يا رسول الله لقد سجدت في صلاتك هذه سجدة ما كنت تسجدها، كأنما يوحي إليك. فقال ﷺ: لم يوح إليّ، ولكن ابني ـ الحسن بن علي ـ كان على كتفي فكرهت أن أعجله حتى نزل[188].

٣ـ ويسمع رسول الله ﷺ بكاء طفل وهو يصلي بأصحابه جماعة، فيخفف صلاته رحمة بذلك الطفل، ورعاية لعواطف أمه. روى أبو قتادة عن النبي ﷺ قوله: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطوّل فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه»[189].

وفي رواية عنه ﷺ: «فأتجوّز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»[190].

وعن أنس بن مالك: وإن كان ﷺ ليسمع بكاء الصبي فيخفف مخاف أن تفتن أمه[191].

٤ـ عن أبان بن تغلب قال: كنت مع أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام في الطواف، فجاء رجل من إخواني، فسألني أن أمشي معه في

---

(١٨٧) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري ج٨ ص٨٠ كتاب الاستئذان – باب طول النجوى.

(١٨٨) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٤٣ ص٢٩٤.

(١٨٩) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري ج١ ص١٧١ باب من أخف الصلاة.

(١٩٠) المصدر السابق.

(١٩١) المصدر السابق.

حاجته. ففطن بي أبو عبد الله عليه السلام فقال: يا أبان، مَنْ هذا الرجل؟

قلت: رجل من مواليك سألني أن أذهب معه في حاجته.

قال: يا أبان اقطع طوافك، وانطلق معه في حاجته فاقضها له.

فقلت: إني لم أتم طوافي.

قال: إحص ما طفت وانطلق معه في حاجته.

فقلت: وإن كان طواف فريضة؟

فقال: نعم وإن كان طواف فريضة.

إلى أن قال عليه السلام: لقضاء حاجة مؤمن خير من طواف وطواف، حتى عدّ عشر أسابيع.

فقلت له: جعلت فداك فريضة أم نافلة؟

فقال: يا أبان إنما يسأل الله العباد عن الفرائض لا عن النوافل[192].

٥ـ وللصوم المستحب فضل عظيم وأجر كبير، لكنك إذا دعيت للطعام من قبل أحد إخوانك المسلمين، فإن استجابتك له أرجح عند الله تعالى من إكمال الصيام.

ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «من نوى الصوم ثم دخل على أخيه فسأله أن يفطر عنده فليفطر، فليدخل عليه السرور، فإنه يحتسب

(١٩٢) الحر العاملي: محمد بن الحسن/ تفصيل وسائل الشيعة ج١٣ ص٣٨٠ حديث رقم ١٨٠١١ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث-قم.

له بذلك اليوم عشرة أيام» [١٩٣].

وفي حديث آخر: «من دخل على أخيه وهو صائم تطوعاً فأفطر كان له أجران: أجر لنيته لصيامه، وأجر لإدخال السرور عليه» [١٩٤].

إن هذه الأحكام والتوجيهات الدينية تريد تربية الإنسان المسلم على احترام مشاعر الآخرين، وحفظ كرامتهم ومكانتهم، وأن ذلك مورد لرضى الله سبحانه، ومخالفته توجب سخطه، والمتديِّن الذي يهتم بضبط أحكام وضوئه وصلاته، عليه أن يكون أكثر اهتماماً بضبط أسلوب تعامله وعلاقته مع الناس. فقد قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها. فقال ﷺ: «هي في النار» [١٩٥].

الرسول القدوة:

إن سيرة الرسول ﷺ وأخلاقه العظيمة في تعامله مع الناس، يجب أن تكون مدرسة يستلهم منها المسلمون أروع المناهج والبرامج في تشكيل وصياغة علاقاتهم الاجتماعية، فمع عظيم قدره ومكانته، ومع موقعيته القيادية في مجتمعه، كان يتعامل مع جميع الفئات والأصناف بمنتهى الرقة والعطف، وغاية التقدير والاحترام.

كان من صفاته ﷺ أنه لا يقطب وجهه، وإذا قال إنسان شيئاً يكرهه لم يجابهه بذلك، بل كان يقول: ما بال أقوام يصنعون كذا

---

(١٩٣) المصدر السابق: ج١٠ ص١٥١ حديث رقم١٣٠٨٤.

(١٩٤) المصدر السابق: حديث رقم ١٣٠٩١.

(١٩٥) القزويني: حسن مرتضى/ الرسول الأكرم مدرسة الأخلاق ص٢٧٣ الطبعة الأولى ١٩٩١م دار البيان العربي-بيروت.

ويقولون كذا؟ فينهى بدون أن يسمي فاعل الأمر.

وكان يتفقد أصحابه، ويعطي كل واحد من جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه.

ومن جالسه لحاجة صبر له حتى يكون هو المنصرف عنه.

ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من القول. وكان ﷺ يقول: « ردوا السائل بشيء قليل، أو بقول جميل».

وقد روى بعض خدمه أنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أفّ قط، وما قال لشيء صنعته، لِمَ صنعته؟ ولا لشيء تركته، لِمَ تركته؟

وكان من عادته أنه يجيب الناس الذين ينادونه بأحسن جواب، فكان إذا ناداه أحد قال له: لبيك.

وعن جرير بن عبد الله قال: ما حجبني رسول الله ﷺ قط منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسّم، وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة من دعاه، ويعود المرضى حتى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر، ولا يرتفع على أحد حتى عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس.

وروى بعض أصحابه أنه ﷺ إذا فقد الرجل من أصحابه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده، وكان لا يدع أحداً يمشي معه إذا كان راكباً حتى يحمله معه، فإن أبى قال: تقدم أمامي وأدركني في المكان الذي تريد.

وكان يتعاون مع أصحابه، كأنه أحدهم لا يترفع عليهم في قليل

ولا كثير. فقد كان في سفر فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله عليّ ذبحها، وقال آخر: عليّ سلخها، وقال آخر: عليّ طبخها، فقال ﷺ: وعليّ جمع الحطب. فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك، فقال ﷺ: قد علمت أنكم تكفوني، ولكني أكره أن أتميّز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه. ثم قام فجمع الحطب.

وكان إذا استمع إلى أحد لا ينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه.

وكان إذا أخذ بيده أحد، لا يرسل يده حتى يرسل ذلك الإنسان يده.

وما قعد إلى رجل قطّ فقام حتى يقوم ذلك الرجل، ولم يرَ مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له، وكان يبدأ من لقيه بالسلام حتى الأطفال والنساء، ويبدأ أصحابه بالمصافحة.

ويكرم من دخل عليه، وربما بسط إليه ثوبه، ويؤثره بفراشه الذي تحته، ويكنّي أصحابه، ويدعوهم بأحب أسمائهم، تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه.

وقد روى سلمان الفارسي رضي الله عنه: دخلت على رسول الله ﷺ وهو متكئ على وسادة، فألقاها إليَّ. ثم قال: يا سلمان ما من مسلم دخل على أخيه المسلم فيلقي له الوسادة إكراماً له إلا غفر الله له.

وإذا كان يصلي وجاء إليه أحد خفف صلاته حتى يفرغ منها مسرعاً ليسأله عن حاجته، ثم يعود إلى صلاته.

وكان يؤتى بالصبي الصغير فيدعو له بالبركة، أو يسميه، أو يؤذن في أذنه، فيأخذه فيضعه في حجره تكرمة لأهله، وربما بال الصبي عليه

فيصيح عليه بعض من رآه حين بـال، فيقـول ﷺ: لا تزرمـوا بالصـبي فيدعه حتى يقضي بولـه، ثم يفرغ له مـن دعائـه أو تسـميته أو أذانـه. فيبلغ بذلك سرور أهله إلى ما شاء الله، حيث يرون أنـه لا يتـأذى ببـول صبيهم، فإذا انصرفوا غسل ثوبه.

وكان إذا جلس إليه أحـد تزحـزح لـه شـيئاً، وذات مـرة قـال لـه رجل: يا رسول الله في المكان سعة، فقال: نعم، لكـن مـن حـق المسـلم على المسلم إذا رآه يريد الجلوس أن يتزحزح له[١٩٦].

وخـرج رسـول الله ﷺ مـن المدينـة متوجهـاً إلى الحـج في السـنة العاشرة، ومعه خلق كثير، فلما انتهى إلى ذي الحليفـة أدرك أسـماء بنـت عميس زوجة أبي بكر المخـاض، فعطـل رسـول الله سـفره وأقـام تلـك الليلة ومعه كل المسلمين من أجلها، وولدت محمد بن أبي بكر[١٩٧].

وجاء إعرابي فبال في جانب مـن المسـجد فزجـره النـاس فنهـاهم النبي ﷺ فلما قضى بولـه أمـر الـنبي ﷺ بـذنوب مـن مـاء فـأهريق عليه[١٩٨].

وفي رواية قام إعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس فقال لهم النبي ﷺ: دعوه وهريقوا على بوله سَجْلاً مـن مـاء أو ذنوبـاً مـن مـاء فإنمـا بعثتم ميسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين[١٩٩].

---

(١٩٦) الشيرازي: السيد محمد الحسيني/ السبيل إلى إنهاض المسلمين ص٤١٠-٤١٤ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ /قم.

(١٩٧) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٢١ ص٣٨٩.

(١٩٨) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صـحيح البخـاري ج١ ص٦٥ بـاب صـب الماء على البول في المسجد.

(١٩٩) المصدر السابق.

ومرّ ﷺ ذات يوم بصبي فرآه حزيناً ولما سأله عن السبب قال: إن بلبله قد مات فعزّاه وخفف عنه[٢٠٠].

واستقصاء أخلاقيات رسول الله ﷺ وروائع سيرته العطرة تحتاج إلى مجلدات، وإنما أردنا تقديم بعض الصور والنماذج، لتأكيد أهمية حسن التعامل والعلاقة مع الناس، وضرورة احترام مشاعر الآخرين وأحاسيسهم وعواطفهم.

(٢٠٠) القزويني: حسن مرتضى/ الرسول الأكرم مدرسة الأخلاق ص٢٢٠.

النجاح في العلاقات

يتعرض الإنسان من خلال علاقاته وتعامله مع الناس إلى امتحان دائم، فهو من جهة يواجه أمزجة مختلفة ونفسيات متفاوته، ومن جهة أخرى يحتاج إلى التعامل والتعاطي الدائم معهم، ولكي يكون الإنسان ناجحاً في هذا التعامل ينبغي أن يمتلك صدراً منشرحاً ونفسية سمحة.

فالتعامل مع البشر تختلف قوانينه عن التعامل مع الطبيعة، إذ قوانين الطبيعة ثابتة بينما البشر أمزجة مختلفة، وعقول متفاوتة، ومصالح شتى، وأكثر من ذلك أن مزاج الفرد الواحد لا يكون ثابتاً دائماً بل يتقلب بتقلب الظروف والأجواء التي تحيط به، مما يضفي على الصعوبة الموجودة أصلاً صعوبة أخرى، فقد تلتقي شخصاً يوماً ما فيكون فيه سعيداً فرحاً مسروراً، ثم تلتقيه يوماً آخر فتجده على عكس ذلك تماماً.

وليس صحيحاً أن يلقي الإنسان باللائمة في مشكلات التعامل على الآخرين، فيحسب نفسه بريئاً من كل نقص، أو يرى أن النقص والعيب في الآخرين فقط، فيقول إن الناس لا يفهمونه ولا يقدرونه، وأنهم غير جديرين بالاحترام والتقدير، وأنهم لو كانوا كذا لكان تعامله معهم أفضل، ولو كانوا مثل فلان وفلان، لكنت ناجحاً معهم.

والواقع أن الناس لا يمكن أن يكونوا كما يتمنى أي شخص

ويريد، فهل يتصور هذا أن الله يخلق الخلق حسب مزاجه ورغبته هو، وهل الناس لباس تفصله على ذوقك حتى تلبسه؟ أم أثاث تريد أن تستعمله فتعطي قياسه للنجار فيصنعه لك. إن الناس هم الناس.. في كل مكان تذهب إليه وسيبقون كذلك.

ولم يحقق الله لأحدٍ من خلقه، حتى من أنبيائه ورسله، أن يخلق له أناساً من صفات معينة حتى ينجح في تعامله معهم.

فكيف ينجح الإنسان في تعامله مع الناس رغم اختلاف نفسياتهم، هذا ما تجيب عنه الآية (٦٣) من سورة الفرقان حيث يقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾.

حيث تؤكد الآية أن ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الذين يخضعون لأوامره ونواهيه، يتصفون بصفة مهمّة تساعد في إنجاح علاقتهم مع الآخرين وتأثيرهم عليهم، وهذه الصفة هي أنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ فلا يمشون بخيلاء وتكبر وتجبر، وأنهم لا ينظرون إلى أنفسهم بتميز عن الآخرين ولا يشعرون بأنهم أرقى من بقية الناس.

وهذه النفسية المتكبرة لا يمكن أن تنجح في التعامل مع الغير، لأن أهم أسس النجاح أن يكون الإنسان قادراً على التسامي على ردَّات الفعل، ومتمكناً من ضبط النفس أمام كل إثارة وتهييج، وأنىَّ للمتكبر أن يصل إلى هذا المستوى!

ثم تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ والجاهلون ليسوا بالضرورة طبقة الأميين أو غير المتعلمين بل قد يكونون أناساً متعلمين وعلماء متخصصين، غير أنهم جهّال في كيفية التعامل مع غيرهم، وهم ليسوا بالضرورة صغاراً في السن بل قد

يكونون كباراً في السن إلا أن تصرفاتهم طفولية.

فالذين هم من عباد الرحمن المطيعين لا يستجيبون لإثارات الجاهلين بل يكون ردهم كما تؤكد الآية ﴿سَلاَمًا﴾.

وسلاماً هنا تعني الوداع، أي إن هذا وقت الافتراق بيننا، أي إننا لن نستجيب لكم في الوقوف عند كل تصرف جاهل تقومون به، بل سنمر به مرور الكرام، كما تشير إلى ذلك آية أخرى حيث يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[201]. وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[202]. فليس يليق بشأنهم أن يردوا على كل تصرف جاهل، بل هم أرفع وأعلى وهم منصرفون إلى مهماتهم وأعمالهم الطيبة الأساس لا ينشغلون عنها بالترّهات والخصومات الجانبية.

وهذه هي الصفة التي تميزت بها الشخصيات الناجحة في التعامل مع الآخرين.

ويعطي لنا الإمام علي بن الحسين عليه السلام نموذجاً لتلك الشخصية فقد حدث «أن لئيماً اعتدى عليه فسبه، فأشاح عليه السلام بوجهه عنه، فانفتخت أوداج اللئيم وراح يقول له: إياك أعني. وأسرع الإمام قائلاً: وعنك أغضي.. وتركه الإمام وانصرف»[203].

(٢٠١) سورة الفرقان: آية ٧٢.

(٢٠٢) سورة القصص: آية ٥٥.

(٢٠٣) القرشي: باقر شريف / الإمام زين العابدين - ص٧٧ ج١ / الطبعة الأولى ١٩٨٨م دار الأضواء - بيروت.

وخرج من المسجد ذات مرة فسبّه رجل فأسرع إليه الناس للانتقام منه فنهاهم عن ذلك، وأقبل عليه قائلاً: ما ستره الله عنك أكثر، ألك حاجة نُعينُك عليها؟ وخجل الرجل وود أن الأرض قد ساخت به، ولما نظر إليه الإمام أشفق عليه فألقى إليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم»[٢٠٤].

هذا، في حين أنك تجد بعض الناس يتفاعلون حتى مع الكلام الذي ينقل اليهم عن الآخرين رغم أن النقل قد لا يكون دقيقاً.

وينقل عن الشيخ الآخوند محمد كاظم الخراساني ﵀، أنه كان آية في تعامله حتى مع المناوئين له وكان يهتم خصوصاً بمبادلتهم الإساءة بالحسنى..

وذات مرة دخل عليه أحد الخطباء المعروفين ممن كانوا يعارضون الشيخ الآخوند في تزعمه لحركة المشروطة التي تطالب الملك القاجاري في إيران بوضع دستور للبلاد وإنشاء مجلس للشورى، وكان ذلك الخطيب ينتمي إلى مجموعة أخرى كانت تسمى بالمستبدة، تطالب بأن يبقى الوضع كما هو خوفاً من دخول القوانين غير الإسلامية في الدستور أو نفوذ رجال من خارج الوسط الديني في مجلس الشورى، ولوجود حالة الخلاف هذه فكثيراً ما تناول ذلك الخطيب من على منبره الشيخ الآخوند بالنقد والتجريح على موقفه، وشاء القضاء أن يحتاج هذا الخطيب أن يبيع بيته حتى يسدد ديناً عليه فقال له المشتري إذا وقع الآخوند على سند بيتك اشتريه وإلا فلا.. فجاء إلى النجف. والتقى الشيخ الآخوند.. احترمه الشيخ كثيراً وأجلسه في صدر المجلس وعبر له

---

(٢٠٤) المصدر السابق: ص٧٧.

عن سروره بلقائه، فقال الخطيب: أرجو أن توقع هـذا السـند لأستطيع أن أبيع بيتي، فأخذ الشيخ السند ثم بعد فترة قـام الشـيخ وأخـرج مـن خزانتة عدة أكياس من الليرات، ودفعها إلى الخطيـب وقـال: أنـت مـن أهل العلم وأنا لا أرضى أبداً بضغط الحاجة على أهل العلم، خذ هـذا المبلغ وأدِّ ديونك ولا تبع بيتك فتشرد عائلتـك. فخجـل الخطيـب مـن تصرف الشيخ ولكنه أصبح بعد ذلك من أنصار الشيخ ومحبيه[٢٠٥].

الأقربون أولى:

ومهمـا كانـت الحاجـة إلى ممارسـة هـذا الخلـق مـع النـاس ماسـة وشديدة إلا أن التعامل بها مع المحيط القريب من الإنسـان أهـم وأكـبر. فالعفو والصفح له قيمة عظيمة إذا مارسته مع الأبعدين، ولكـن قيمتـه تزداد حينما يمارس وسط العائلة والأسرة والـدائرة الأقـرب للإنسـان، مع الوالدين الكبيرين، ومع الزوجـة والأبنـاء، مـع الفقـراء والضـعفاء ومن لا حول لهم ولا قوة.

ذلك أن القوي قد يندفع الإنسان للتنازل معه بـدافع مـن الخـوف والهيبة وتجنباً للمشاكل، أما الضعيف الذي لا يملك حولاً ولا قـوة، فـإن التنازل له لا يحركه الخوف، بل رغبة للثواب والأجـر مـن الله وانطلاقـاً من طيب الذات والمعدن.

أما بعض الناس، ونحن نسمع أحياناً شيئاً من هذه القصـص، إذا أخطأ في حقهم بعض إخوانهم فإنهم يكشرون عـن أنيـابهم فينتقمـون مـنهم بشراسـة. وإذا تجـاوز علـيهم أنـاس غربـاء عـنهم أو أقويـاء في

---

(٢٠٥) مختاري: الشيخ رضي/ سيماء الصالحين/ ترجمة الشيخ حسين الكـوراني/ دار البلاغة – بيروت ١٩٩٢م ص٢٧٨

مراكزهم، فإنهم يخنعون ويركعون ويدفنون رؤوسهم في الرمال.. ثم لا يفتأ يكرر عليك كلمات الصبر والتحمل «ما عليه، بسيطة، ما يخالف، نتحملها، شدة وتزول»، وبذلك يكونون مصداقاً لقول الشاعر:

أسد علي وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الضحى بل كان قلبك في جناحي طائر

وليت شعري، أين كانت هذه الكلمات حينما أخطأ في حقك أخوك في النسب أو الإيمان، ولماذا حسبت ثورتك هناك استرداداً لعزتك وكرامتك التي تصورت أنها انتهكت وأهينت، أما هنا فتحولت إلى صابر محتسب، فأين منك إذاً قول الله عز وجل: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٢٠٦].

إن طريق الفرد، والمجتمع للنجاح في تحدي العلاقة مع الآخرين يمر حتماً عبر هذه المقدمة، وما لم يكن الإنسان قادراً على التحكم في ردّات فعله على تصرفات الغير، فإنه لن يكون ناجحاً في تعامله، ولنا في سيرة النبي ﷺ وأهل بيته خير أسوة وقدوة، ولنستفد من سيرة العظماء الذين بلغوا أعلى المناصب لكنهم تغلبوا على حسّ الانتقام، فهذا يوسف الصديق عليه السلام يخاطب إخوته حينما دخلوا عليه مصر وهو ملك عليها، بعد أن أساؤوا في حقه كثيراً، حسدوه وألقوه في غيابة الجب، ثم بيع كعبد في مصر، وتعرّض للسجن والاتهام، لكنه كان أسمى وأكبر من الانتقام والحقد، بل خاطبهم: ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٢٠٧].

---

(٢٠٦) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٢٠٧) سورة يوسف: الآية ٩٢.

إن سعة الصدر، صفة ضرورية للنجاح في الحياة الاجتماعية، ولتجاوز مشاكل التعاطي والتعامل مع الآخرين من القريبين والبعيدين، وهي تجعل نفس الإنسان في راحة من التفاعل مع إساءات الآخرين، كما توفر على أعصاب الإنسان ومشاعره حالة الاضطراب والتشنج الناتج من ردات الفعل على الاستفزازات المعادية.

الاعتذار من الخطأ سلوك حضاري

صدور الخطأ من الإنسان أمر طبيعي ومتوقع، فما دام ليس معصوماً فهو معرض للغفلة وسيطرة الشهوة وغلبة الانفعال، وتلك هي أرضية الخطأ ومنشأ حدوثه.

لكن الأمر المهم هو كيفية تعامل الإنسان مع خطئه. فهل يتعهد نفسه بالمراقبة والمحاسبة، ويراجع مواقفه وتصرفاته، ليكتشف أخطاءه وعثراته؟ أم يبقى مسترسلاً سادراً تتكرر أخطاؤه وتتراكم دون اهتمام منه وانتباه؟

من ناحية أخرى، هل يمتلك شجاعة التراجع والاعتذار عن الخطأ؟ أم يصرّ عليه؟ أو يتهرَّب من تحمل المسؤولية تجاهه؟

ثم إن خطأ الإنسان قد يكون تجاه نفسه، أو تجاه ربه، أو تجاه الآخرين من أبناء جنسه. وحديثنا الآن مخصص لبحث هذا القسم الأخير.

اتهام الذات قبل الآخرين:

حينما يحصل خلل في العلاقة بين الإنسان وآخرين، فإنه غالباً ما يتنصّل من المسؤولية، ويحمّل الطرف الآخر وزر ما حدث، فهو يبريء نفسه ويصدر حكماً سريعاً على الآخر بإدانته وتحميله مسؤولية الخلل.

وهذا ينشأ من حبّ الذات، والدفاع عنها، والتعود على تبرير التصرفات والممارسات.

أما التفكير بموضوعية، والتعاطي بنضج ووعي، فهو يوجه الإنسان إلى اتهام ذاته أولاً، ومحاسبتها على هذا الأساس حتى يثبت العكس.

وإذا أخذ الإنسان هذه الفرضية بعين الاعتبار، وحاسب نفسه وناقش تصرفاته وتعامله، فقد يكتشف بالفعل أنه كان مخطئا بحق الآخر، أو أنه شريك في الخطأ، ويتحمل نسبة معينة منه.

ويربينا القرآن على هذه المنهجية السليمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢٠٨].

واكتشاف الخطأ هو الخطوة الأولى في طريق المعالجة والإصلاح، أما الخطوة الثانية والأهم، فهي إعلان تحمّل المسؤولية أمام الطرف الآخر، والاعتذار إليه من وقوع الخطأ تجاهه.

وهو موقف بطولي لا يصدر اختياراً إلا عن ثقة وشجاعة وعدالة وإنصاف.

فالإنسان الذي يحترم نفسه لا يرى الخطأ جزءاً من شخصيته حتى يصعب عليه الاعتذار عنه، بل يراه غباراً ووسخاً يرتاح بإزالته والتخلص منه.

وتحمّل مسؤولية الخطأ مظهر رفيع لالتزام العدل وممارسة

---

(٢٠٨) سورة يوسف: الآية ٥٣.

الإنصاف، حيث يكون الإنسان في جانب الآخر مقابل ذاته. وكما يقول الإمام علي عليه السلام: « غاية الإنصاف أن ينصف المرء من نفسه » (٢٠٩).

ويقول عليه السلام: « ألا إنه من ينصف الناس من نفسه لم يزده الله إلا عزًّا » (٢١٠).

لماذا الاعتذار؟

الاعتذار يعني الإقرار بالخطأ، وطلب العفو والصفح من الطرف الآخر.

قال الجرجاني: الاعتذار: محو أثر الذنب.

وقال الكَفَويّ: الاعتذار إظهار ندم على ذنب تُقرّ بأن لك في إتيانه عذراً.

وقال المناوِيّ: الاعتذار: تحرّي الإنسان ما يمحو أثر ذنبه(٢١١).

والاعتذار سلوك حضاري يدل على احترام الإنسان لنفسه، وتقديره لغيره. وينطوي على فوائد وعوائد كثيرة من أهمها:

١ـ الاعتراف بالخطأ والاعتذار عنه يشكل رادعاً للإنسان عن تكراره، لأن الإقدام على هذه الخطوة يكتنفها ضغط وعناء نفسي، فليس سهلاً على الإنسان أن يقف موقف الإقرار والاعتذار من الآخرين، فهو نوع من العقوبة الاختيارية يفرضها الإنسان على نفسه،

---

(٢٠٩) الواحدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢١٠) الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي ج٢ ص١٤٤.

(٢١١) مجموعة من المتخصصين: موسوعة نضرة النعيم ج٢ ص٣٨٩ الطبعة الأولى ١٩٩٨م دار الوسيلة/ جدة.

مما يخلق لديه حساسية وحذراً من الوقوع في حالة مشابهة، ويجعله يعيد النظر في الأسباب والعوامل التي أوقعته في الخطأ، وذلك سبيل لإصلاح النفس ومعالجة سلبيات السلوك.

بعكس ما إذا مرّ الإنسان على خطئه مرور الكرام، ولم يشعر بأيٍّ مضاعفات أو نتائج مؤذية، فقد يستهين بالأخطاء حينئذٍ، ويستسهل ارتكابها.

٢ـ وهو محاولة لإصلاح الخلل الذي أحدثه الخطأ، وتدارك مضاعفاته على الآخرين، كما يشكل نوعاً من إعادة الاعتبار لمن وقعت عليه الإساءة، وأداءً لحقِّه. يقول الإمام علي عليه السلام: «حُسْن الاعتراف يهدم الاقتراف»[٢١٢].

٣ـ والاعتذار ينزع فتيل الغضب من نفس الطرف الآخر، ويطفئ نار العداوة، ويحتوي الأزمة والتشنج. إن أكثر النزاعات والخصومات المترتبة على تصرفات خطأ يمكن حلها وتجاوزها عن طريق كلمة اعتذار رقيقة، تشيع في نفس الطرف الآخر الرضا، وتشعره بإعادة الاعتبار.

٤ـ ولا يسود هذا الخلق الحضاري الرفيع إلا عبر المبادرة لممارسته من قبل الواعين الناضجين، إن التزام أي فرد به وخاصة إذا كان في موقعية مرموقة، يشجع الآخرين من حوله على التخلق به، فإذا رأى الأبناء شجاعة أبيهم في الاعتذار إليهم عن زلل صدر منه تجاههم، فإنهم سيقتدون به في تعاملهم مع الآخرين، وإذا لاحظ العاملون في أيِّ مؤسسة أن كبار الموظفين يتحملون مسؤوليتهم تجاه الأخطاء ويعتذرون

---

(٢١٢) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٤ ص٤٢٠.

عنها، فإنهم سيسيرون على النهج نفسه، وهكذا في سائر المواقع والمناصب القيادية في المجتمع.

إن كل من يتمنى ويرغب أن يتعامل معه الآخرون بهذا الأسلوب المريح، عليه أن يبادر هو بانتهاجه مع الآخرين، ليترسخ كمبدأ في العلاقات الاجتماعية، وكقيمة أخلاقية سامية.

٥ـ الفوز برضوان الله والأمن من عقابه يوم القيامة، وذلك بالتخلص من حقوق الناس وظلاماتهم، حيث تؤكد النصوص الدينية: أن الله تعالى لا يتساهل في حقوق الناس على بعضهم بعضاً، كما روي عن رسول الله ﷺ: «أما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة»[٢١٣].

ومثله ما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص هناك شديد، وليس هو جرحاً بالمدي، ولا ضربًا بالسياط، ولكنه ما يستصغر ذلك معه»[٢١٤]. وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ قال: قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة»[٢١٥].

وتشير عدة أحاديث مروية عن الرسول ﷺ إلى أن أصحاب المظالم والحقوق يأخذون من حسنات الإنسان يوم القيامة، حتى إذا انتهت كل حسناته توضع عليه من سيئاتهم مقابل حقوقهم عليه[٢١٦].

(٢١٣) الريشهري:محمدي/ ميزان الحكمة ج٥ ص٦٠١.

(٢١٤) المصدر السابق: ص٦٠٢.

(٢١٥) المصدر السابق ص٣٤٩.

(٢١٦) الهندي: علي المتقي/ كنز العمال ج٣ ص٥٠٦ حديث رقم

إن بإمكان الإنسان أن يتخلص من كثير من الظلامات عبر لحظة اعتراف، وكلمة اعتذار، فيوفر على نفسه العناء والعذاب الشديد يوم القيامة.

خلفيات الامتناع:

لماذا يصعب على الكثير من الناس تدارك أخطائهم بتقديم الاعتذار إلى المتضررين؟ ولماذا التردد والامتناع عن انتهاج هذا المسلك الحضاري؟

يبدو أن هناك خلفيات نفسية وثقافية واجتماعية يمكن اعتبارها عوائق وموانع من انتشار هذا الخلق الكريم.

أولاً: التفكير والتصور الخطأ بأن الاعتذار عن الخطأ تشكل حالة ضعف وهزيمة لشخصية الإنسان، وفي الحقيقة قد يكون ذلك صحيحاً لأول وهلة، وفي الظاهر، لكن واقع الأمر، أنه يكشف عن ثقة بالنفس، وشجاعة في الموقف، وهو ينتشل الإنسان من موقع الضعف الذي انحدر إليه بخطئه، إلى موقع القوة الذي يرتقيه باعتذاره، وبالتالي فإنه كسب وانتصار للإنسان على المدى البعيد.

ثانياً: التعصب للذَّات بتبرير أخطائها والدفاع عنها حتى في الزلات والعثرات، وذلك ما يعبّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَاد﴾[217].

إنه لا يعترف على نفسه بالخطأ، ولا يقبل لذاته أن يكون في

٧٦٤٢/٧٦٤٣/٧٦٤٤.

(٢١٧) البقرة: الآية٢٠٦.

موضع الإقرار والاعتذار، إنه المحقّ دائماً وأبداً، والمصيب في كل مواقفه وتصرفاته، وإن كان في أعماق نفسه مدركاً لباطله وانحرافه، لكن العزة الآثمة، والعصبية الجاهلية لا تسمح له بالتراجع والتدارك.

ثالثاً: التعالي والشعور بالرفعة والتفوق: وخاصة إذا ما أخطأ الإنسان تجاه من يعتقد أنهم أقلّ منه شأناً ومكانة، فإنه يأنف ويستثقل طلب المعذرة منهم.

وفي الواقع، فإن جوهر الأخلاق الفاضلة، وحقيقة النبل والسمو، إنما تتجلى في مثل هذه المواقف، إذ ليس فخراً كبيراً أن يعتذر الإنسان لمن هم أقوى منه، وأرفع شأناً ومنزلة، فقد تكون الظروف تفرض عليه ذلك، أو تدفعه بهذا الاتجاه، لكن الفضل والمجد هو في حسن التعامل مع الضعفاء، وأداء حقوقهم، والتزام مكارم الأخلاق تجاههم.

رابعاً: الثقافة العامة والأجواء الاجتماعية: حيث قد تسود المجتمع ثقافة التفاخر والتباهي، وأجواء العصبية والمزايدات، مما يجعل الأفراد منساقين ضمن هذا التيار العام.

تماماً كما نقرأ في تاريخ العرب قبل الإسلام، وكيف كانت تحكمهم العصبيات القبلية، ومشاعر الاعتزاز والفخر تجاه بعضهم بعضاً، وكانوا يمارسون مبدأ «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» بمعناه الحرفي، ويستجيبون لمبالغات شعرائهم التي كانت تملأ نفوسهم بالزهو، وتزين لهم مواقف التصلب والتعالي على الآخرين.

فهذا أحدهم يقول عن قبيلته:

ونُنكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول

ويقول آخر:

وإنـا أنـاس لا توسـط بيننـا لنا الصـدر دون العـالمين أوالقـبر

ويقول ثالث:

ألا لا يجهلـن أحـد علينـا فنجهـل فـوق جهـل الجاهلينـا

إذا بلـغ الفطـام لنـا صـبي تخـرّ لـه الجبابـر سـاجدينا

ولا تزال رواسب هذه الثقافة الجاهلية، وروح التعالي والتعصب، تقوم بدورها في نفوس أبناء الأمة العربية إلى اليوم.

وإلا فكيـف تفسـر خطابـات رئـيس النظـام العراقـي صـدام، ومقولات وسائل إعلامه؟

إنه يتحدث عن تفوق العراق، وعن سحق قوى الاستكبار، وعـن أم المعارك، وأعظم الانتصارات التاريخية، بينمـا يعـيش نظامـه في أسـوأ عزلة، ويرزح شعبه تحت أبشع حصار.

ومع كل المآسي التي أوقعها بالعراق والأمـة العربيـة والإسـلامية، عبرحربيه الظالمتين ضد إيران واحتلال الكويت، فإنـه يـرفض الاعتـذار عن خطئه، ويكرِّر مقولاته الشريرة!!

كما تتمظهر رواسب الثقافة الجاهلية في مجتمعاتنا بأشكال متعددة ومختلفة، على مستوى الأفراد والتجمعات والمجتمعات.

قبول الاعتذار:

أن يقدم المخطئ اعتذاره، تلك خطوة رئيسة مهمّة لتجاوز الخصام وتحقيق الوئام، لكنها يجب أن تقابل بخطوة إيجابية مـن الطـرف الآخـر، وهي قبول الاعتذار والصفح عن الإساءة، لتكون ثمـرة الإصـلاح والـودّ يانعة ناضجة.

ولماذا لا يقبل الإنسان عذر الآخرين، وهو معرض لأن يصدر منه ما صدر منهم؟

وأي عقوبة يريد إيقاعها بالطرف الآخر أشد من هذه العقوبة المعنوية، حيث أقر له بالذنب، واعترف تجاهه بالحق، وتقدم إليه بطلب المعذرة والصفح؟

ثم أي كسب يسعى لنيله أكبر من هذا الكسب الاجتماعي، إذ أصبح في موقع المرتجى والملتمس منه، واتضحت أحقيته أمام الناس؟

يقول الشاعر:

ولعمري لقد أجلك من جاء مقرّاً بذلة الاعتراف

إنه إذا تنكر لكل ذلك وأصر على رفض الاعتذار، فقد تتأثر موقعيته عند الله وفي أعين الناس، ويتحول من مركز القوة إلى موقع الضعف، ويتوجه إليه اللوم والإدانة لتصلبه وشدته.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اعتذر إليه أخوه المسلم من ذنب قد أتاه فلم يقبل منه لم يرد عليّ الحوض غداً» [٢١٨].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «من لم يقبل العذر من متنصّل صادقاً كان أو كاذباً لم ينل شفاعتي» [٢١٩].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «أعقل الناس أعذرهم للناس» [٢٢٠].

ويقول عليه السلام: «اقبل اعتذار الناس تستمتع بإخائهم» [٢٢١].

---

(٢١٨) الهندي: علي المتقي كنز العمال ج٣ ص٣٧٨ حديث رقم ٧٠٣.
(٢١٩) المجلسي: محمد باقر بحار الأنوار ج٧٤ ص٤٧.
(٢٢٠) الآمدي التميمي عبد الواحد / غرر الحكم ودرر الكلم.

وورد عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنه قال: «إن شتمك رجل عن يمينك ثم تحوّل إلى يسارك واعتذر إليك فاقبل عذره»[222].

ويقول الشاعر:

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه   وكان الذي لا يقبل العذر جانيا

أخلاقيات التحضر:

في الأمم المتحضرة والعالم المتقدم، يسود هذا الخلق الحضاري، وعلى أعلى المستويات، لأن الأجواء العامة لديهم من سياسية وإعلامية وثقافية تدفع بهذا الاتجاه.

فإذا ما حصل خلل أو خطأ في أداء أي مؤسسة أو جهاز فإن صاحب القرار فيها يعلن تحمله للمسؤولية، ويقدم اعتذاره، وقد يستقيل من منصبه.

ففي كوريا الجنوبية مثلاً أدى تصادم قطار مع حافلة إلى وفاة عدد من الركاب، قبل فترة، فأعلن وزير المواصلات اعتذاره عن الحادث، وقدم استقالته.

وقبل أيام حينما فشلت القوات الإسرائيلية في اعتقال المجاهد محمود أبو هنود أحد القادة العسكريين لحركة حماس، وتسبب ذلك في مقتل ثلاثة جنود إسرائيليين، فإن رئيس القوة البرية الإسرائيلية أعلن تحمله لكامل المسؤولية واستقال من منصبه. بالطبع إن اليهود يلتزمون

---

(٢٢١) المصدر السابق.

(٢٢٢) المجلسي: محمد باقر بحار الأنوار ج٧٥ ص١٤١.

بهذه الأخلاقيات مع بعضهم بعضاً، أما في تعاملهم مع الآخرين، فمحكوم بعنصريتهم وعدوانيتهم البشعة.

وعلى مستوى الدول والأمم فقد أعلنت اليابان في العام الماضي اعتذارها عن الفظائع التي ارتكبها جنودها ضد كوريا وتايلاند والصين إبان الحرب.

كما قدمت ألمانيا الاتحادية عدة مرات اعتذارات رسمية للعديد من الدول الأوروبية ولليهود عن جرائم النازيين. وقدّم الرئيس الأندونيسي عبدالرحمن وحيد اعتذاره عن العنف الذي مارسته القوات الأندونيسية ضد سكان تيمور الشرقية طيلة ٢٤ عاماً من الاحتلال.

وحتى رأس الكنيسة الكاثوليكية البابا بولس الثاني أعلن اعتذاره في العام المنصرم عن الكنيسة والتجاوزات التي ارتكبها المسيحيون تجاه الأمم الأخرى، وفي خلافاتهم الداخلية.

صور ونماذج:

ونجد في تاريخنا الإسلامي وسير العلماء والأولياء صوراً مضيئة، ونماذج مشرقة للالتزام بهذا الخلق الكريم، فقد بعث رسول الله ﷺ أحد القادة العسكريين من أصحابه، وهو خالد بن الوليد، في السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة على رأس فرقة من الجيش صوب إحدى القبائل للدعوة إلى الإسلام، ولم يأمره بقتالهم، بعثه داعياً ولم يبعثه مقاتلاً لكنه أساء التصرف، وارتكب خطأً كبيراً بقتلهم وسلبهم.

قال ابن الأثير: فلما انتهى الخبر إلى النبي ﷺ، رفع يديه إلى السماء ثم قال: « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد! ».

ثم أرسل عليًّا ومعه مال وأمره أن ينظر في أمرهم، فودى لهم الدماء والأموال حتى إنه ليدي ميلغة الكلب، وبقي معه من المال فضلة، فقال لهم علي: هل بقي لكم مال أو دم لم يودّ؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيكم هذه البقيّة احتياطاً لرسول الله ﷺ، ففعل. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: أصبت وأحسنت(٢٢٣). وفي رواية قال ﷺ لعلي عليه السلام: أعطيتهم ليرضوا عني رضي الله عنك(٢٢٤).

وجاء في سيرة الإمام السيد محمد حسن الشيرازي المعروف بالمجدد «١٢٣٠هـ ـ ١٣١٢هـ» الذي كان المرجع الديني والزعيم البارز أنه في درسه العلمي، طرح مسألة ذات يوم فأشكل عليه تلميذه الشيخ محمد كاظم الخرساني صاحب كفاية الأصول، ودار بينهما نقاش سكت التلميذ في نهايته، وفي اليوم التالي بدأ الميرزا الشيرازي درسه بالاعتذار من تلميذه والإقرار بأن الحق في المسألة كان معه.

ودار نقاش مرة بين عالمين، أحدهما يدعى الملا خليل القزويني والآخر الفيض محسن الكاشاني المعروف، واحتدم بينهما الجدال، وكان القزويني حادًّا في نقاشه وردوده، وانتهى الجدال دون نتيجة، وذهب الشيخ القزويني إلى بلده قزوين، وبحث المسألة أكثر وراجع نفسه، وتبيَّن له أنه كان مخطئا في رأيه وموقفه، فبادر للسفر إلى كاشان منتصف الليل وطرق باب الشيخ محسن الكاشاني عند الفجر، وحينما سأل الشيخ محسن من الطارق؟ قال الملا خليل: يا محسن قد أتاك المسيء، ثم

---

(٢٢٣) ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي/ الكامل في التاريخ ج١ ص٦٢٠ الطبعة الرابعة ١٩٩٤م مؤسسة التاريخ العربي/ بيروت.

(٢٢٤) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٢١ ص١٤٢. ووردت هذه الحادثة في صحيح البخاري في الحديث رقم ٤٣٣٩ ورقم٧١٨٩.

اعتذر إليه واعـترف لـه بـالحق فيمـا دار بينهمـا مـن نقـاش. فقـال لـه الفيض: ولماذا كلّفت نفسك عناء السفر في هـذا الوقـت؟ فأجـاب: مـا دمت اكتشفت خطأي فإن ضميري لا يرتاح ونفسـي لا تسـتقر قبـل أن أقر لك بالخطأ وأتقدم إليك بالاعتذار.

وكان عندنا في القطيـف عـالم فاضـل هـو الشـيخ فـرج العمـران «١٣٢١هـ ـ ١٣٩٨هـ» ، الذي كان مـن سـجاياه الطيبـة أنـه حينمـا يختلف مع أحد في مسأله علمية دينية، ثم يتبيَّن له خطـأ رأيـه وصـواب رأي الطرف الآخر، فإنه يبادر إلى إعلان اعترافه وإقـراره، أمـام الطـرف الآخر، بل ويسجل ذلك في مذكراته التي كان يطبـع أجزاءهـا في حياتـه تحت عنوان «الازهار الأرجية في الآثـار الفرجيـة». ومـن شـواهد ذلـك رسالة كتبها للشيخ علي بن يحيى على أثر نقاش بينهما في مسـألة علمية ثم ظهر له صحة رأي الشيخ بن يحيى، وأثبت الرسـالة في الجـزء الحادي عشر من «الأزهار الأرجية» ص٢٤٧.

كما ذكر في الجزء العاشر ص١٩٠ نقاشاً بينـه ويـن الشـيخ المـيرزا محسن الفضلي حول مسألة فقهية، وأن الصواب كـان مـع الشـيخ الفضلي، كما تبيَّن له فيما بعد.

إننا بحاجة إلى ممارسة هذا الخلق الحضـاري في تعاملنـا مـع أبنائنـا وعوائلنا، وفي تعاطينـا مـع المحـيطين بنـا، مـن زمـلاء عمـل وأصـدقاء، وأشخاص يعملون تحت إدارتنا ومسؤوليتنا.

وكبار المجتمع وزعاماتـه وشخصـياته أولى وأجـدر بـالتحلي بهـذا الخلق الرفيع، ليكونوا قدوات لبقية الناس وسائر المواطنين.

بين الحقوق والواجبات

باعتبار الإنسان عضواً في مجتمعه، وجزءًا من محيطه، فعلاقته مع ما حوله علاقة تفاعل بين طرفين، وذلك يعني وجود التزام متبادل له وعليه، وقد أصبح متداولاً أن يطلق على الالتزامات التي عليه مصطلح الواجبات، أي ما يجب عليه تجاه الآخرين، كما يطلق على التزامات الآخرين المفترضة نحوه عنوان الحقوق، أي ما يستحقه منهم.

وفي الأصل فإن الحق والواجب يرجعان إلى معنى واحد هو الثبوت، جاء في لسان العرب: حق الأمر يَحِقُ ويُحق حقاً وحقوقاً: صار حقاً وثبت، قال الأزهري: معناه وجب يجب وجوباً. وفي التنزيل: قال الذين حق عليهم القول: أي ثبت. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. أي وجبت وثبتت[٢٢٥].

وعن معنى الواجب والوجوب جاء أيضاً في لسان العرب: يقال: وجب الشيء يجب وجوباً إذا ثبت، ولزم[٢٢٦].

وقال المحقق الأصفهاني: وأما الحق فله في اللغة معان كثيرة، والمظنون رجوعها إلى مفهوم واحد، وجعل ما عداه من معانيه من باب

---

(٢٢٥) ابن منظور: محمد بن مكرم/ لسان العرب ج١ ص٦٨٠.

(٢٢٦) المصدر السابق: ج٦ ص٨٧٨.

اشتباه المفهوم بالمصداق، وذلك المفهوم هو الثبوت تقريباً، فالحق بمعنى المبدأ هو الثبوت، والحق بالمعنى الوصفي هو الثابت، وبهذا الاعتبار يطلق الحق عليه تعالى لثبوته بأفضل أنحاء الثبوت الذي لا يخالطه عدم أو عدمي، والكلام الصادق حق لثبوت مضمونه في الواقع ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ أي يثبته ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ثابتاً ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي ثبت ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي ثبتت و ﴿الْحَاقَّةُ﴾ أي النازلة الثابتة « وحقيق عليّ أن لا أقول إلا الحق » أي ثابت عليّ[227].

وبناءً عليه، فإن الحق والواجب يؤديان معنى واحداً، وفي مجال بحثنا فإن الحقوق هي الأشياء الثابتة على الإنسان للآخرين، أو على الآخرين للإنسان، والواجبات هي الثابتة على الإنسان للآخرين، أو على الآخرين له، فالحقوق واجبات، والواجبات حقوق، والفرق إنما هو فيما للإنسان أو عليه.

الحقوق متوازية:

انتظام حياة الإنسان في مجتمعه يقتضي أن يتمتع بالحقوق التي له، وأن يؤدي الواجبات التي عليه، وإذا ما حصل خلل في هذه المعادلة، فسيؤدي إلى الاضطراب في حياة الفرد والمجتمع.

ففي الحياة العائلية ـ مثلاً ـ هناك حقوق متبادلة بين الزوجين يقول تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[228]، فإذا ما التزم

---

(٢٢٧) الأصفهاني: الشيخ محمد حسين/ حاشية كتاب المكاسب ج١ ص٣٨ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ دار المصطفى لإحياء التراث– قم.

(٢٢٨) سورة البقرة: الآية٢٢٨.

كل منهما بأداء حقوق الآخر، عاشا في سعادة ووئام، أما إذا تخلف أحد الطرفين عن القيام بشيء من واجباته تجاه الآخر، فسينتج عن ذلك اضطراب العلاقة، وفقدان الانسجام، مما يلقي بظله على مجمل حياة الأسرة، وإنجاز مهماتها الاجتماعية.

وعلى الصعيد السياسي: هناك حقوق متبادلة بين الراعي والرعية، بين الحاكم والمحكوم، ورعاية تلك الحقوق من قبل الطرفين، يوفر الأمن والاستقرار، ويفسح المجال لتقدم الوطن والأمة، بينما يؤدي جور الحاكم على حقوق الشعب، أو تجاوز المواطن لحق السلطة، إلى الفتنة والفوضى والفساد.

وهكذا الأمر في كل مجال من مجالات الحياة الاجتماعية، والعلاقات الإنسانية، فليست هناك علاقة بين طرفين يختص أحدهما بالحقوق، ويحرم منها الآخر، وحتى فيما يرتبط بالله تعالى وهو الخالق المتفضل على عباده، فقد وعد المؤدِّي لحقه تعالى في العبادة والخضوع بالجزاء والثواب.

ويقرر الإمام علي عليه السلام هذه الحقيقة مخاطباً رعيته بدء حكمه بقوله: «ولكم عليَّ من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له. ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه، لقدرته على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه، وتوسعاً بما هو من المزيد أهله. ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها،

ويوجب بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض»[229].

إنه تأكيد على تبادل الحقوق المتوازية بين الحاكم والمحكوم، كمصداق لمبدأ عام يتمثل في تكافؤ الحقوق ضمن أي علاقة بين طرفين.

الواجبات أولاً:

وإذا كان على الإنسان من الواجبات تجاه الآخرين، بمقدار ما له من الحقوق، فنقطة البدء لبناء علاقة صحيحة ناجحة مع الآخر، يجب أن تنطلق منه بالمبادرة لأداء الحقوق المتوجبة عليه، مما يلزم الآخر ويشجعه على التعامل بالمثل، وحينئذٍ تنتظم العلاقة وتستقيم.

ومعنى ذلك أن يفكر الإنسان بالواجبات التي عليه، قبل أن يفكر في الحقوق التي له، وأن ينجز ما عليه، قبل أن يطالب بما له.

لكن مشكلة أكثر الناس أنهم يتجاهلون ويتناسون ما عليهم من واجبات، ثم يتجهون ويطالبون بما لهم من حقوق.

وهذا ما يشير إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف» فكل واحد يجيد التحدث عن الحق، ووصفه وتبيينه إذا كان إلى جانبه، فهو أوسع الأشياء في مقام الوصف والتبيين، أما في مقام الالتزام بأداء الحق للآخرين وإنصافهم، فالجميع يضيقون به ذرعاً.

إن على الإنسان أن يبدأ من نفسه فليزمها بأداء حقوق الآخرين قبل أن يطالب الآخرين بحقوقه.

١ـ فهو مسؤول أمام الله تعالى عن الواجبات التي عليه، فحقوق

(٢٢٩) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة/ خطبة ٢١٦.

الناس جزء لا يتجزأ من حقوق الله، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض» بل ورد في حديث آخر عنه عليه السلام: «جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة لحقوقه فمن قام بحقوق عباد الله كان ذلك مؤدياً إلى القيام بحقوق الله»[230].

ولكي يخرج الإنسان من عهدة المسؤولية أمام الله تعالى عليه أن يؤدي للناس حقوقهم.

٢ـ وإذا ما بادر الإنسان لأداء حق الآخر، كان في ذلك تثبيت لحقه، لأن الحقوق «يوجب بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض» على حد قول الإمام علي عليه السلام. كما يشكل ذلك دافعاً وإلزاماً قانونياً وأدبياً للطرف الآخر تجاه الإنسان.

٣ـ وأداء الإنسان للحق الذي عليه هو بمقدوره وحسب إرادته، بينما أداء الآخرين لحقوقه عليهم، هو بيدهم، وإذا كان لا يمتلك قرار الآخرين وإرادتهم فإنه يمتلك قراره وإرادته، فليكن البدء منه.

محورية الذات:

قسم كبير من الناس يوغلون في التمحور حول ذواتهم، فيرون الحق من الزاوية التي يكونون فيها فقط، ويتحدثون دائماً عن المفروض والواجبات على الغير، دون أن يلتفتوا إلى ما عليهم من حقوق وواجبات، وكأن الحق يدور معهم حيثما داروا.

فمثلاً: إذا كان دائناً يشدد على واجب المدين في المبادرة إلى أداء الدين، وحرمة المماطلة والتسويف، أما إذا كان مديناً فإنه يركز على

---

(٢٣٠) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم/ حرف الجيم- رقم ٦٤.

إنظـار المـدين « وإن كـان ذو عسـرة فنظـرة إلى ميسـرة » ويـذم الإلحـاح والتضييق على المدينين!!

وإذا جاء متأخراً وقد سبقه الجماعة إلى الطعام مـثلاً: تحـدث عـن العجلة المذمومة وعاتب على عدم انتظاره، أمـا إذا جـاء مبكـراً وتـأخر غيره، فإنه يتبرّم من عدم احـترام الوقـت، ويـدعو إلى التقيُّـد بـه علـى حساب المتأخرين!!

وحينما يخرج بسيارته من طريق فرعي إلى طريـق رئـيس تتواصـل فيه حركة السير، ينتقد السائقين في ذلك الطريق على سـرعتهم وعـدم إعطائهم فرصة لمن يريد الخروج من الطريق الفرعي، أما إذا كـان يقـود سيارته في الطريق الرئيس، ورأى من يريد الخـروج مـن طريـق فرعـي، فسيواجهه ببوق سيارته المزعج، مبدياً انزعاجه لعدم صبر الطرف الآخر وتمهله!!

وهكذا نلحظ العديد مـن المواقـف والممارسـات الـتي تعبّـر عـن محورية الذات، وتفصيل الحقوق والواجبات على قياسها.

وكم رأينا ثواراً كانوا يعارضون السلطات لديكتاتوريتها وقمعهـا، ويرفعون شعارات المطالبة بالحرية والعدالة، فلما أصبحوا هـم في موقـع السلطة والحكم جعلوا الأولوية لحفظ النظام وحماية الأمن والاسـتقرار، على حساب العدالة والحرية، فاختلاف موقعيتهم وتبـدّل الزاويـة الـتي ينظرون منها، أثر على رؤيتهم للقيم والمعايير.

نحو وعي حقوقي:

ولكن لماذا يتجاهل أكثر الناس الحقوق التي عليهم، أو يتساهلون في القيام بها؟

١ ـ هناك عامل الجهل وضعف الوعي الحقوقي، حيث لا يعرف الكثيرون ما يتوجب عليهم تجاه الآخرين، فالعلاقات والارتباطات في مجتمعاتنا تسير بشكل عفوي، وضمن أعراف وتقاليد، ترتكز على قوة الطرف وموقعيته.

ففي الحياة الزوجية، حيث يكون الزوج في موقع القدرة، تصبح حقوق الزوجة مغيَّبة مهملة، وفي مجال العمل، فإنه تبعاً لسلطة رب العمل، تُتجاهل حقوق العامل، وهكذا بين الأب وأولاده، وبين المعلم وتلامذته، وبين الموظف ومديره..

إن الحاجة ماسة لثقافة حقوقية، توضح للإنسان ما له وما عليه، وتوجهه إلى الالتزام بما عليه أولاً.

ولا يعني ذلك أن يتساهل الإنسان في الحقوق التي له، ولا يطالب بها، ويسكت عن مصادري حقوقه. بل المقصود أن لا تكون المطالبة بالحقوق بديلاً عن القيام بالواجبات، ولا أن يوزع الإنسان المفروضات والمسؤوليات على الآخرين متناسياً نفسه، بل يبدأ بنفسه أولاً، ثم يطالب غيره.

٢ ـ وعامل آخر يرتبط بالتربية النفسية، والبناء الأخلاقي لشخصية الإنسان، حيث يحتاج إلى التذكير بالقيم والمبادئ، وأنها يجب أن تكون المقياس والمحور لمواقفه وتصرفاته، وليس مصالحه الذاتية.

من جهة ثانية فإن اعتراف الإنسان بالحقوق التي عليه يعني تحمله لمسؤولية أدائها، بينما المطالبة بالحقوق التي له، هو تحميل للآخرين، ويشكل لوناً من ألوان التهرب من المسؤوليات.

ورد في حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ما عبد الله

بشـيئ أفضل مـن أداء حق المؤمن »[٢٣١].

وعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: « أعرف الناس بحقوق إخوانه وأشدهم قضاءً لها أعظمهم عند الله شأنا»[٢٣٢].

٣ـ وفي أحيان كثيرة يتساهل الإنسان في حقوق القريبين منه، على أساس دالّته عليهم، وموقعيته بينهم، وكأن ذلك يعفيه عن التزاماته تجاههم. وهذا خطأ كبير، فمراعاة حقوق الأقربين أولى، لأنهم الأكثر احتكاكاً وارتباطاً بالإنسان، وإذا ما تعوّد تجاوز حقوقهم، فسيعيشون معه معاناة دائمة، لذلك يقول الإمام علي عليه السلام: « ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك»[٢٣٣].

وكذلك الحال في العلاقة مع الأصدقاء، فإن تجاوز حقوقهم اعتماداً على تغاضيهم عن ذلك، يسبب تدمير الصداقة وإنهاء الأخوة، يقول عليه السلام: « لا تضيعن حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه»[٢٣٤].

رسالة الحقوق:

من كنوز المعرفة، ومصادر الوعي الحقوقي في التراث الإسلامي، « رسالة الحقوق» للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام. « ٣٨هـ ـ ٩٤هـ».

هذه الرسالة التي أوردها الشيخ الصدوق في « الخصال» بسند

(٢٣١) الكليني: محمد بن يعقوب/ الكافي ج٢ ص١٧٠.
(٢٣٢) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٢ ص١١٧.
(٢٣٣) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة- كتاب٣١.
(٢٣٤) المصدر السابق.

معتبر ينتهي إلى ثابت بن أبي صفية المعروف بأبي حمزة الثمالي، وأوردها أيضاً الحسن بن علي بن شعبة الحراني في «تحف العقول».

وهي تتحدث عن الحقوق التي على الإنسان «الواجبات» تجاه الآخرين، بدءاً من حق الله تعالى، ومروراً بحق النفس، وأعضاء الجسم، ثم تتناول حقوق الوالدين، والسلطان، والمعلم، والرعية، والزوجة، والأولاد، والأخ، والجار، والشريك، وانتهاء بحق المخالفين في الدين «أهل الذمة». فتستعرض خمسين حقاً بلغة تربوية رائعة، تنطوي على مضامين ومعارف عظيمة.

إنها تخاطب الإنسان لتعريفه وتذكيره بالحقوق التي عليه، وتدفعه إلى تحمل مسؤولياته تجاه الآخرين، مخاطبة وجدانية، تحرك كوامن فطرة الإنسان، وتوقظ عقله وتفكيره.

وفي مناسبات ذكريات أئمة الهدى، ما أحوجنا إلى العودة لآثارهم وتوجيهاتهم، لأنها تحمل لنا القيم والمبادئ التي عاش أهل البيت من أجلها، وكرّسوا حياتهم في الدفاع عنها ونشرها.

الفصل الرابع

في المسؤولية الاجتماعية

تقدم الفرد وتقدم المجتمع

المجتمع الراشد

إطفاء الحرائق الاجتماعية

العمل التطوعي في خدمة المجتمع

المجتمع واليتيم

تقدم الفرد وتقدم المجتمع

يطمح كل إنسان سوّي أن يحقق لنفسه التقدم والعزة في هذه الحياة، وأن يحمي ذاته عن المكاره والنوائب، وهو طموح سليم مشروع، ولكن ما هو الطريق إلى التقدم؟ وكيف يحقق الإنسان اهدافه ومصالحه في هذه الحياة؟

إن الطريق الطبيعي هو أن يفجّر الإنسان طاقاته وقدراته، ويتعب على نفسه لنفسه، فيتعلم ويفكر ويخطط، ويعمل ويتحرك ويجتهد، وكلما اجتهد أكثر كانت فرصه في التقدم اكبر.

لكن السؤال المطروح هو عن مدى العلاقة بين تقدم الفرد وتقدم المجتمع الذي ينتمي اليه، فهل لواقع المجتمع تأثير علىمستوى الفرد وواقعه؟ أم أن الفرد يمكنه أن يشكّل حالة منفصلة فيحقق لنفسه التقدم بغض النظر عن واقع مجتمعه متقدماً كان أو متخلفاً؟

إن الأكثرية من الناس مستغرقون في همومهم الذاتية، ومتجهون إلى تحقيق مصالحهم الشخصية، دون أن يكون الهمُّ الاجتماعي العام حاضراً في تفكيرهم، أو مدرجاً في جدول اهتماماتهم، ولسان حال كل واحد منهم: إني معني بنفسي، ببناء مستقبلي، وترتيب أمور حياتي.

والنظرة الواعية للحياة، تكشف للإنسان أن هناك علاقة وثيقة

بين واقعه وواقع المجتمع، فمهما كانت قدراته وكفاءاته، ومهما حقق من تقدم وإنجاز، فسيبقى متأثراً بالوضع العام لمجتمعه، لذلك ينبغي أن يكون تفكيره واهتمامه ضمن دائرتين ومحورين: البناء الذاتي لنفسه والمساهمة في البناء العام للمجتمع.

ولمزيد من التوضيح نشير إلى بعض النقاط والحقائق التي تظهر عمق الارتباط بين تقدم الفرد وتقدم المجتمع.

توفير فرص التقدم:

١ ـ صحيح أن الإنسان يتقدم بجدِّه واجتهاده، وبكفاءاته وقدراته، لكن توفّر الفرص وتهيؤ الظروف، هو الذي يمكنه من تفجير طاقاته، وتفعيل نشاطه، والمجتمع المتقدم يوفر لأبنائه فرص التقدم، بينما المجتمع المتخلف تنعدم أو تقل فيه تلك الفرص.

فمثلاً في مجال التعليم، ليس طلابنا في البلاد العربية أقل ذكاءً أو نبوغاً من نظرائهم في أمريكا واليابان وأوروبا، والبعض من أبنائنا متفوق في جدِّه واجتهاده، لكن آفاق التقدم العلمي، ومستوى البرامج التعليمية، والاهتمام بمستويات الذكاء والنبوغ، وتوفّر مجالات التعليم في جميع الحقول والتخصصات، هو الذي يعزِّز فرص الطالب هناك أكثر.

وفي المجال الفكري والمعرفي توجد في البلاد الإسلامية عقول جبارة، وأذهان وقّادة، لكن قلة مراكز البحوث والدراسات، وضعف وسائل التعبير عن الرأي، يجعل فرص التقدم العلمي في المجتمعات الأخرى أكثر، وكشاهد على ذلك فإن بعض أبنائنا في تلك المجتمعات قد حققوا تقدماً كبيراً في حقول علمية وتكنلوجية مختلفة، وأول عربي ينال جائزة نوبل في مجال علمي هو الدكتور "أحمد زويل" المصري الذي

يعيش في أمريكا ونال الجائزة لعام ١٩٩٩م في الكيمياء.

تأثير الأجواء:

٢ـ والإنسان يتأثر بالأجواء التي يعيشها مجتمعه، فإذا كانت أجواءً صالحة، تعبق بالقيم الرفيعة، وتدفع نحو الفاعلية والرقي، فإنها تشكل أرضية مساعدة لانطلاق الفرد وتقدمه، وإذا كانت أجواء المجتمع سيئة يهيمن عليها التخلف، وتحكمها حالة الكسل والتبرير، وتشوبها المفاسد والفتن، فإنها ستترك آثارها وبصماتها على نفسية الفرد وسلوكه في الاعم الاغلب.

الفرد لا يعيش في جزيرة معزولة، أو صحراء نائية، بل هو جزء من مجموع، يتفاعل ويتناغم مع الحالة السائدة عادة، وهذا واضح في المجال الصحي مثلاً، حيث إن اختلاطه بالناس المصابين ببعض الأمراض يعرضه للإصابة عن طريق العدوى، وهكذا فإن كثيراً من الأفكار والسلوكيات يأخذها الفرد ويتطبع عليها من خلال تكيفه الاجتماعي.

النتائج والمضاعفات:

٣ـ وإذا ما حلت بالمجتمع مشكلة أو فتنة، فإن النتائج والمضاعفات ستشمل الجميع، دون فرق بين المشارك والمحايد، فوجود حالة فقر في المجتمع، قد تفرز آثاراً تطال الاغنياء، وانتشار المعاصي والمنكرات ينذر بالخطر حتى على المتدينين الصالحين.

لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾[٢٣٥]، ومن هنا أوجب الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي

---

(٢٣٥) سورة الأنفال: الآية٢٥.

عن المنكر، وحمّل الإنسان ليس مسؤولية إصلاح نفسه فقط، وإنما السعي لهداية الآخرين وإصلاحهم أيضاً، لحماية أجواء المجتمع من التلوث والفساد.

ويشبّه رسول الله ﷺ نتائج أعمال الفاسدين على المجتمع كله، بمن يخرق سفينة فيعرضها للغرق بجميع من فيها يقول ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[٢٣٦].

وكمثال شاخص أمامنا ما يعانيه أبناء الشعب العراقي، حينما ابتلوا بواقع سياسيٍّ فاسد، حيث لم يسلم من مضاعفات ونتائج هذا الفساد أحد منهم، وحتى من يرى نفسه بعيداً، وغير متدخل في شأن من الشؤون، فإنه لم يكن بمنجى من تلك المعاناة والمآسي.

موقعية المجتمع:

٤ـ إذا كنت تنتمي لأمة قوية، وترتبط بمجتمع عزيز، فإن ذلك يوفّر لك الحماية والمنعة، ويفسح أمامك مجالات الفرص الرابحة، أما إذا كانت أمتك مهيضة الجناح، أو كان مجتمعك ضعيفاً مستضعفاً، فلن تحظى بنظرة محترمة من الآخرين، ترعى حقوقك، وتحترم كفاءتك، وبالتالي فموقعية مجتمعك ومكانته بين المجتمعات، لها دخل في تحديد

---

(٢٣٦) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري ج٣ ص٢٧٨ كتاب الشركة– المكتبة الثقافية – بيروت.

موقعيتك أنت ومكانتك شئت أم أبيت.

إننا نرى الآن بوضوح كيف تحسب أي جهة في العالم ألف حساب للتعامل مع أي يهودي، أو شأن من شؤون اليهود، لأنهم أصبحوا في موقعية تتيح لهم ذلك، فقبل فترة قررت الحكومة المصرية شق طريق دائري حول القاهرة، بطول ٩٥كم، لتخفيف ازدحام السير في عاصمة يحتشد في شوارعها يومياً زهاء ١٥مليون شخص، لكن هذا الطريق يمر بمقبرة قديمة لليهود في منطقة «البساتين» مضى عليها أكثر من سبعين عاماً، وتضم حوالي ٣٥٠قبراً، وأرض المقبرة في الأصل ليست ملكاً لليهود، بل هبة من الحكومة المصرية، وقد عرضت الحكومة إزاحة المقبرة بمقدار ٣٠متراً فقط، إلا أن اليهود أثاروا ضجة كبرى في العالم، وشكلوا وفداً من رؤساء الجاليات اليهودية في العالم لمقابلة الرئيس المصري والمسؤولين، وأقاموا دعاوى بمختلف العناوين أمام القضاء المصري، لمنع أي مساس بمقبرة أمواتهم، وكانت النتيجة إبقاء المقبرة وبناء جسر فوقها!!

دور الفرد في تقدم المجتمع:

من كل ما سبق يتجلى لنا الارتباط الوثيق بين واقع الفرد وواقع المجتمع، وأن من يفكر في بناء مستقبله، وإنجاز التقدم لذاته، عليه أن يستحضر التفكير والاهتمام بواقع مجتمعه، وأن يجعل ذلك جزءاً أساساً في برنامج حركته وسعيه.

ولكن كيف يساهم الفرد في تقدم مجتمعه؟

١ـ إن اهتمام الفرد ببناء ذاته، واجتهاده في إحراز الرقي والتقدم لنفسه، هو في حقيقته مساهمة منه في تقدم المجتمع، ذلك أن تقدم المجتمع حصيلة لتقدم الافراد، فكل فرد ينجز تقدماً يضيف قوة لرصيد

المجتمع، شريطة إحساسه بانتمائه الاجتماعي، وتفاعله مع الحركة العامة للمجتمع.

٢ـ ويمكن للفرد أن يوجه نشاطه وفاعليته، ضمن مسعاه الذاتي، ليصب في قناة خدمة المجتمع، وإنجاح خطط تقدمه، فالطالب إذْ يختار تخصصاً علمياً لدراساته العليا، عليه أن يتلمّس حاجة مجتمعه، ورجل الأعمال حين يفكّر في الاستثمار عليه أن يتجه للمشاريع التي تنشّط حركة اقتصاد المجتمع، وتعالج بعض مشاكله، والأديب والمفكر يوظف موهبته الأدبية، وإبداعه الفكري، في استنهاض المجتمع، وتطوير واقعه..

٣ـ وكدور مباشر يقوم به الفرد في تقدم المجتمع، عليه أن يقتطع جزءاً من إمكاناته الفكرية والعملية والمادية، ليصرفه في خدمة الصالح العام، وذلك عبر المشاركة في المؤسسات الاجتماعية، والنشاط التطوعي.

ومهما كان انشغال الإنسان بشؤونه الخاصة، فإن بامكانه صرف شيء من الوقت يومياً أو أسبوعياً من أجل الخدمة العامة.

ويتصور البعض أن تحمّلهم لشيء من المسؤوليات الاجتماعية، في وقتهم أو جهدهم أو مالهم، سيكون على حساب شؤونهم وقضاياهم الخاصة، لكن هذا التصور ليس دقيقاً، فإن مردود ما ينفقونه في المصلحة العامة سينعكس عليهم، لما سبق بيانه من آثار ونتائج تقدم المجتمع على واقع الفرد، لذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾[٢٣٧]. كما أن ما نعتقده من لطف الله وكرمه يعطينا الثقة والاطمئنان بتعويضه على من بذل في سبيل الله ولمساعدة عباده أضعافاً

(٢٣٧) سورة الإسراء: الآية٧.

مضاعفة، يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٣٨).

وروي عن الحبيب المصطفى ﷺ أنه قال: «خير الناس من ينفع فكن نافعاً لهم»(٢٣٩).

إن الله تعالى يبارك للانسان في وقته، حينما يصرف جزءاً منه في خدمة المجتمع، ويزيد في رزقه إذا بذل منه في أمور الخير، ويمنحه القوة والنشاط، لسعيه في حوائج الناس وقضاياهم، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٢٤٠)، والآية وعدٌ صادقٌ من الله سبحانه وتعالى، بالتعويض على من أنفق في سبيله.

٤ـ لدعم مسيرة التقدم في المجتمع، على الأفراد أن يشجعوا كل مبادرة ونشاط إيجابي، ينبثق من أرض مجتمعهم، فالتشجيع والتفاعل أمر ضروري لتحفيز الإنتاجية، وتطويرها في مختلف المجالات، فالعالم إذا التف حوله أبناء مجتمعه، والخطيب إذا تجاوب معه المستمعون، والمفكر إذا لاحظ الاستقبال لأفكاره، والأديب إذا أحس بأصداء عطائه، والمصنّع إذا راجت بضاعته، والمزارع إذا اشترى الناس إنتاجه، كل ذلك يشكل ديناميكية للتقدم والتطور في حركة المجتمع.

أما الاستهانة بالإنتاج المحلي، والطاقات الوطنية، لصالح الاستيراد من الخارج، والانشداد لما وراء الحدود، فتلك حالة انهزامية أنانية، قد

---

(٢٣٨) سورة البقرة: الآية ٢٦١.

(٢٣٩) الهندي: علي المتقي/ كنز العمال ج١٦ ص١٢٨ رقم٤٤١٥٤ الطبعة الخامسة ١٩٨٥م مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢٤٠) سورة سبأ: الآية ٣٩.

تبتلى بها بعض المجتمعات، حتى شاع عند الناس المثل القائل: حمامة الحيّ لا تطرب.

وأصبح البعض يتفاخر بأنه يتسوق من خارج بلده، أو يستهلك المنتجات من خارج وطنه، وقد يحتج بجودتها أو إتقانها، لكن الأمر في بعض الأحيان، لا يخلو من الانبهار بالخارج والتأثر بالدعاية والإعلام، ولكي يرتفع مستوى الجودة وتتطور الإنتاجية في الوطن، لا بد من التشجيع والدعم، مع تقديم الملاحظات التطويرية، والنقد البناء.

ومرة أخرى، نضطر للإتيان بشاهد من حالة معادية، هي الحالة اليهودية، من أجل أخذ العبرة والدرس، فاليهود في كل مكان، بتشجيع بعضهم بعضاً، ودعم إنتاجيتهم المحلية، وحينما بدأ السيّاح الإسرائيليون يتوافدون على الأردن في أعقاب اتفاقية السلام بين الأردن وإسرائيل، فوجئ الوسط السياحي في الأردن ـ كما تحدثت الصحف ووسائل الإعلام ـ بسياسة التقتير الذي يتميز به السائح الإسرائيلي، فهم يحضرون معهم وجبات الطعام الخاص بهم، تحت زعم أنهم يحافظون على طقوس تناول الطعام اليهودية، التي تحتم عليهم تناول الطعام اليهودي الحلال، أو الكوشر، لكنها ليست سوى تبريرات، إذ إنهم لا يحضرون مأكلهم الحلال فقط، بل وزجاجات الماء، فهل هناك ماء حلال وآخر حرام؟ وقد تحدث رئيس وزراء الأردن السابق عبد السلام المجالي مع المسؤولين الإسرائيلين حول الموضوع مشيراً إلى أن زجاجات الماء في الأردن أرخص منها في إسرائيل، ومع ذلك فالسيّاح الإسرائيليون وهم من المقتدرين الأثرياء يحضرون معهم زجاجات الماء!![٢٤١]

(٢٤١) الحياة – جريدة يومية – لندن ١٨مارس١٩٩٥ ص١٢.

الاهتمام الاجتماعي:

وأخيراً، فإن الله تعالى لا يقبل أن نعيش أنانيين نفكر ونسعى في حدود الدائرة الشخصية الذاتية، إن ذلك لا يتوافق مع التدين الحقيقي الصادق، حيث يؤكد القرآن الكريم أن تجاهل قضايا المجتمع ومناطق الضعف فيه، دليل وعلامة على كذب ادعاء الدين، يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۞وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[٢٤٢] إن مجرد إهمال الأيتام وتركهم، وعدم الحث على الاهتمام بحاجات الفقراء، يعني أن التدين كاذب زائف. والرسول محمد ﷺ يَعُدُّ غير المهتم بأمور الأمة خارجاً عن دائرة الإسلام «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[٢٤٣].

---

(٢٤٢) سورة الماعون: الآيات١-٣.

(٢٤٣) الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي ج٢ ص١٦٣/ دار الأضواء - بيروت.

المجتمع الراشد

لكـي يصـبح الإنسـان شخصـية مسـتقلة مؤهلـة لاتخـاذ القـرار وللتعاقد مع الآخرين لا بد أن يصل إلى مستوى الرشد، حسب أحكـام الفقه الإسلامي.

ذلك أن أحكام المعاملات التي ترتبط بالإنسان تختلـف بـاختلاف مراحل حياته مـن حيـث اكتمـال الأهليـة ونقصـانها، فهـو في المرحلـة الأولى، من الولادة إلى سنّ التمييز، يكون قاصراً، وبالاصطلاح الفقهـي « غير مميز » فلا تصح معاملاته، قانونياً لأنه فاقد الأهلية.

وفي المرحلة الثانية: من سنّ التمييز إلى سنّ الرشد، حيـث يفـرق بين الأمور، ويميز النافع من الضار، لكنه بعد لم يصل إلى مرحلة النضج والرشد، وهنا أيضاً يـرى أكثـر الفقهـاء عـدم اسـتقلاليته في التصـرف واتخاذ القرار في المعاملات، حتى وإن كان بالغاً عاقلاً، فالبلوغ والعقـل شرطان للتكليف الشرعي بمعنى أنه ملزم بالتكاليف والأوامـر الدينيـة، لكنه إذا لم يصل مستوى الرشد، لا تكون أهليته مكتملة لإمضاء قراراته وتصحيح معاملاته.

أما المرحلة الثالثة: إذا وصل إلى مستوى الرشد فإنه يكون مكتمل الأهلية، ويطلق عليه فقهياً: رشيد أو راشد، حيث تصح جميع معاملاتـه

وقراراته.

ومعنى الرشد: حسن التصرف ووضع الأمور في مواضعها، وقد يرافق البلوغ، وقد يتأخر عنه قليلاً أو كثيراً، وقد يتقدّمه، لكن لا اعتبار له قبل البلوغ.

وليس للرشد سنّ معينة عند جمهور الفقهاء، وإنما الأمر متروك لاستعداد الشخص وتربيته وبيئته، وليس في النصوص الشرعية تحديد له.

وأغلب القوانين المدنية للأحوال الشخصية في الدول تعتبر الإنسان كامل الأهلية ومستقل الشخصية في سن الثامنة عشرة، وبعضها كالقانون المصري، يرفعها إلى سن ٢١سنة.

كما أن معرفة رشد الإنسان راجع إلى ملاحظة تصرفاته وممارساته، فيختبر مستواه عن طريقها يقول تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[٢٤٤].

حيث إن أموال اليتيم الصغير تكون بيد وليِّه، فإذا ما بلغ، ولوحظ منه الرشد، دفعت إليه أمواله، ليتحمل هو مسؤولية التصرف فيها.

ويفرّق بعض الفقهاء بين الرشد في المجال المالي والرشد في المجال الاجتماعي، فقد يكون الإنسان حسن التصرف في الشؤون المالية، لكنه لايمتلك النضج الاجتماعي لإدارة الحياة العائلية، فهنا لا يستقل بالقرار في عقد الزواج بل لا بد من إذن وليِّه، وإن كانت تصرفاته المالية ممضاة وصحيحة. كما أشار إلى ذلك السيد محمد كاظم اليزدي في العروة الوثقى في المسألة الثامنة من مسائل أولياء العقد.

---

(٢٤٤) سورة النساء: الآية: ٦.

الرشد في منطق القرآن:

جاء الحديث عن الرشد في القرآن تسع عشرة مرة، وفي بعضها جاء بضم الراء وسكون الشين ﴿رُشْد﴾ كقوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ﴾[245]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾[246]، وجاء في موارد أخرى بفتح الراء وفتح الشين ﴿رَشَدا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[247]، وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾[248] وهما مترادفان.

ويبدو أن المقصود بالرشد في منطق القرآن، ما يقابل الغي، فهو بمعنى الهدى في مقابل الضلال والانحراف، وهي مقابلة واضحة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾[249].

كما جاء استخدام الرشد في مقابل السّفه، فيكون بمعنى حسن التصرف والتدبير في مقابل خفة الرأي وضعف التدبير، وذلك هو مفاد المقابلة ضمن الحديث عن رعاية شؤون الأيتام في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا ۞ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[250]. فقبل

---

(٢٤٥) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢٤٦) سورة النساء: الآية ٦.

(٢٤٧) سورة الكهف: الآية ١٠.

(٢٤٨) سورة الجن: الآية ١٤.

(٢٤٩) سورة الاعراف: الآية ١٤٦.

(٢٥٠) سورة النساء: الآيتان ٥-٦.

امتلاك الرشد يكون الإنسان ضعيف الرأي غير ناضج التصرف، وهو ما يعبَّر عنه بالسَّفَه، فإذا تجاوز هذه الحالة أطلق عليه صفة الرشد.

الرشد الاجتماعي:

قد نتحدث عن الرشد على مستوى الأفراد، فنلحظ فرداً رشيداً يميز مصلحته ويحسن التصرف والتدبير، في مقابل فرد ضعيف الرأي، لا يتخذ الموقف المناسب فيما يواجهه من ظروف وأوضاع.

وقد نتحدث عن الرشد على مستوى المجتمعات والجماعات، فهناك مجتمع راشد، ومجتمع يفتقد الرشد والنضج، فكيف نقوّم المجتمعات والجماعات على هذا الصعيد؟ وما هي سمات الرشد الاجتماعي؟

في القرآن الحكيم جاء الحديث عن المجتمع الراشد ضمن قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ﴾[٢٥١].

والآية الكريمة تشير إلى أهم صفة في المجتمع الراشد، وهي الانسجام النفسي والفكري والسلوكي مع المبادئ والقوانين الشرعية..

فالمبدأ الذي يؤمن به المجتمع، تارة يكون مجرد هويّة وعنوان، وتارة يؤخذ المبدأ على أساس التلقي من الأسلاف دون وعي واقتناع، وقد يتفاعل المجتمع مع المبدأ على المستوى الروحي النفسي، لكنه من الناحية العقلية الفكرية لديه تحفظات وإشكالات، وقد يحصل العكس بوجود اقتناع فكري نظري، دون توّفر انشداد روحي نفسي، وقد يكون المبدأ وقوانينه أمراً مفروضاً على ذلك المجتمع لسبب أو لآخر، وكل

---

(٢٥١) سورة الحجرات: الآية ٧.

تلك الحالات تنبئ عن ضعف وخلل في بنية المجتمع وكيانه، حين يـؤمن بعقيدة موروثـة دون اقتنـاع، أو يـدين بمبـدأ لا يلتـزم بتطبيـق أنظمتـه وقوانينه في واقع حياته، أو يخضع لشريعة بالقوة والفرض.

أما المجتمع الراشد الذي تشير إليـه الآيـة الكريمـة ﴿أُوْلَئِـكَ هُـمْ الرَّاشِدُونَ﴾ فهو يتمتع بالصفات التالية:

١ـ حُبّ العقيدة والمبدأ ﴿حَبَّـبَ إِلَيْكُـمْ الإِيمَانَ﴾ بما تحمله كلمـة الحب من معاني الانجذاب النفسي، والانشداد الروحي.

٢ـ الوعي بالمبدأ ﴿وَزَيَّنَـهُ فِـي قُلُـوبِكُمْ﴾ أي أدركـتم بعقـولكم صحة منهجكم الإيماني، وأنه الأفضل الذي تزدان به حياتكم.

٣ـ الردع الذاتـي عــن المخـالفــة والانحــراف ﴿وَكَـرَّهَ إِلَـيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ وهو ناتج عن الصـفتين السـابقتين، فـإذا كان الإنسان محبـاً لمبدئـه، مـن أعمـاق نفسـه، وواعيـاً بدينـه في فكـره وعقله، فإنه بذاته يكره المعصية، وينفر من الخروج عـن حـدود النظـام والقانون، وهكذا فإن الحالـة العامـة في المجتمـع الراشـد، هـي الالتـزام والانضباط بدافع ذاتي، واجتناب المخالفة.

بالطبع حينما ينسب الخالق جلّ وعلا لنفسه التحبيب والتكريـه، ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمْ﴾ و ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ﴾ فإنه لا يعني الإجبار التكويني علـى ذلك، وإنما المقصود تهيئة الوسائل والظروف المناسبة، والتوفيق للقبـول والاستجابة.

ومن خلال الآية الكريمة، وعلى ضوء ما حـدد بـه الفقهـاء معنـى الرشد، الذي يشترط توفره لاقـرار أهليـة التعاقـد وصـلاحية التصـرف عند الإنسان، يمكننا الإشارة إلى أهم سمات وصفات المجتمع الراشد.

الوعي والمعرفة:

١ ـ إذا كان الفقهاء يعتبرون القدرة على تمييز المصلحة، والتفريق بين النافع والضار، هو أول مستويات الرشد، التي يترتب عليها الأثر الشرعي والقانوني، لجهة الاعتراف بأهلية الإنسان واستقلال شخصيته، فيمكننا أن نقتبس من ذلك تحديد أول مستويات الرشد الاجتماعي، وهو وعي المجتمع ومعرفته بالأمور والشؤون التي ترتبط بواقعه، ليتمكن من تشخيص مصلحته، والتفريق بين ما ينفعه أو يضره كمجتمع.

إن كثيراً من الناس في المجتمع يستغرقون في همومهم الذاتية الشخصية، أو ينشغلون بمسائل جانبية ثانوية، ولا يلتفتون لقضايا مجتمعهم، ولا يعون الظروف والاوضاع التي تحوط بأمتهم.

يحدثنا القرآن عن الجماعة الراشدة في العهد الإسلامي الأول، يوم كانوا أقلية في مكة الخاضعة لأجواء الشرك آنذاك، كيف كانوا مهتمين بنتائج معركة بين الروم والفرس، تجري في أدنى أرض الروم وأقرب نقاطها إلى الفرس، ومع هذا البعد الجغرافي، إلا أن المؤمنين في مكة كانوا يتابعون المعركة، وحينما انتصر الفرس المشركون على الروم الكتابيين، تأثر المؤمنون لهزيمة الروم، رغم عدم وجود تواصل أو تحالف بينهم وبينهم، مما يدل على وعي وإدراك بأبعاد تلك الحرب، وآثارها وانعكاساتها، لذلك أنزل الله تعالى سورة كاملة من القرآن باسم سورة «الروم»، تتحدث عن تلك المعركة وعن تفاعل المؤمنين مع نتائجها، ويبشرهم بتغير المعادلة خلال فترة زمنية وجيزة، حيث سينتصر الروم في بضع سنين قادمة، يقول تعالى: ﴿الم ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ

قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٢٥٢].

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار دور الشهادة على العالم الذي أناطه الله تعالى بالمؤمنين ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[٢٥٣]، فإن ذلك يعني ضرورة تطلع المجتمع الإيماني إلى أرفع مستوى من الوعي، يتمكن به من مراقبة التحولات العالمية، والمعادلات الدولية، فضلاً عن وعيه بأوضاعه وقضاياه، يقول الإمام علي عليه السلام: «لا بد للعاقل من ثلاث: أن ينظر في شأنه، ويحفظ لسانه، ويعرف زمانه»[٢٥٤].

حسن التصرف:

٢ ـ كيف يتصرف المجتمع تجاه الظروف والمشاكل والازمات؟ هل تسوده حالة الاستسلام وانتظار المعجزة من المجهول؟ أم تسيطر عليه الانفعالات والأحاسيس، ويحركه الحماس المجرد عن التخطيط السليم؟ أم يواجه التحديات بتفكير موضوعي، وبرامج حكيمة؟

ويقاس رشد المجتمع ونضجه بما يختار ويسلك من هذه الخيارات، فالانهزام أمام المشكلة، يكشف عن فقد الإرادة وضعف الثقة، بينما الوقوع تحت حالة العاطفة والانفعال، وغياب الحكمة والتعقل، قد يضاعف المشكل ويعمّق الأزمة.

وما يقتضيه الرشد هو حسن التصرف، واتخاذ الموقف المناسب في

---

(٢٥٢) سورة الروم: الآيات ١-٤.

(٢٥٣) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٢٥٤) ابن شعبة الحراني: الحسن بن علي/ تحف العقول ص١٤٤ / الطبعة الخامسة١٩٧٤م مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت.

الظرف المناسب، فقد يستلزم الظرف شدة وقوة، وقد يستدعي حماسة وانفعالاً، وقد يتطلب مرونة واستيعاباً.

وفي سيرة الرسول محمد ﷺ أروع النماذج والأمثلة لحسن التصرف في الظروف المختلفة، فالمسلمون الأوائل مع رسول الله ﷺ كانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾[255]، والمعارك والغزوات التي خاضوها تكشف عن شجاعتهم وتضحياتهم، لكن هؤلاء الأشداء على الكفار، تقبلوا صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، بما تضمنته اتفاقية الصلح من شروط لصالح المشركين في ظاهرها وعلى حساب عزة المسلمين، حتى إن بعض الأصحاب سيطرت عليه حالة الحماس والانفعال واعترض على ما حصل، كما يذكر ابن هشام وسائر المؤرخين أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال أوَلسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوَليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أُخالف أمره، ولن يُضيعني! قال: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً[256].

لقد رفض سهيل بن عمرو المفاوض من قبل قريش أن يكتب في وثيقة الصلح: بسم الله الرحمن الرحيم، وأصرّ أن يكتب بدلها: باسمك اللهم. فوافق الرسول ﷺ على ذلك. ثم اعترض سهيل على كلمة

(٢٥٥) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(٢٥٦) ابن هشام: السيرة النبوية ج٣ ص٣٤٦ / الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ دار إحياء التراث العربي – بيروت.

« هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » قائلاً: لو شهدت أنك رسـول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك فقط: ووافق الرسول على ذلك أيضاً. واشترط سهيل: أن من أتى محمداً من قـريش بغـير أذن وليـه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمـد لم يـردوه عليـه، ومـع أنـه شـرط مجحف إلا أن الرسول ﷺ وافق عليه، وحدث أن جـاء أحـد المسـلمين المضطهدين في مكة، يجر القيود والأغلال لاجئاً إلى معسـكر المسـلمين، وهو أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فقام له أبوه سهيل وضرب وجهه، وطلـب مـن الرسـول أن يـرده إلى قـريش، وأن يـرفض لجـوءه، فوافـق الرسول علـى ذلـك، فصـاح أبـو جنـدل: يـا معشـر المسـلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ مما أثار حماس المسلمين لكـن الرسـول ﷺ قال له: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معـك مـن المستضعفين فرجًا ومخرجًا[٢٥٧].

ومع كل ذلك، عدَّ الله تعالى هذا الصلح فتحاً مبينـاً ﴿إِنَّـا فَتَحْنَـا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [٢٥٨]،لأن نتيجته كانـت في الأخـير لمصـلحة الإسـلام، هكـذا يجـب أن يـتحكم العقـل في الموقـف، ولـيس العاطفـة المجـردة، والمجتمع الراشد هو الذي يقوّم الظرف ويتخـذ الموقـف المناسـب تجاهـه بموضوعية وتفكير.

الاستفادة من الإمكانات:

٣ـ لكل مجتمع إمكاناته الطبيعية والبشرية، التي تختلف وتتفاوت من مجتمع لآخـر، ومـا يميّـز المجتمـع الراشـد عـن غـيره، هـو الاهتمـام باكتشـاف الإمكانـات، والعمـل علـى اسـتثمارها والاسـتفادة منهـا،

---

(٢٥٧) المصدر السابق: ص٣٤٧.

(٢٥٨) سورة الفتح: الآية ١.

وتوظيفها في مصلحة تقدم المجتمع.

إن بعض المجتمعات تهمل مواردها الطبيعية، وتتجاهل كفاءات وقدرات أبنائها، بينما تسعى المجتمعات الواعية، لتنمية مواردها، والاستفادة من إمكاناتها الطبيعية والبشرية بأكبر قدر ممكن.

وهذه قبرص الجزيرة الصغيرة القريبة منا تشكل مثالاً للاستفادة من الإمكانات الطبيعية، فهي تقع في الركن الشمالي الشرقي من البحر الابيض المتوسط، وتبعد عن جنوب تركيا ٦٤كم وعن غرب سوريا ١٠٠كم، ويقل سكانها عن السبعمائة ألف نسمة، وهم في مستوى معيشي مرتفع كالأوربيين، وتبلغ نسبة المتعلمين فيهم ٩٠٪ ومع أنهم ليست لديهم ثروات نفطية ومعدنية، لكنهم استثمروا الطبيعة الخلاّبة وحولوا بلادهم إلى منطقة سياحية مهمّة، تشكل السياحة فيها مورداً اقتصادياً أساسياً، إضافة إلى الإنتاج الزراعي الوفير.

وفي مجال استثمار الموارد البشرية تقدم اليابان مثلاً رائعاً، حيث تكمن قوتها العلمية والاقتصادية، في تطوير مستوى الأداء التكنلوجي والصناعي لأبنائها، فاليابان الآن قوة اقتصادية عظمى في العالم رغم قلة مواردها الطبيعية، فهي تستورد كثيراً من الخام التي تحتاجها الصناعات.

وكم تمتلك مجتمعات أمتنا الإسلامية من قدرات وإمكانات هائلة، لكن ما تحتاجه هو التوجه لاستثمارها وتنميتها وتوظيفها من أجل التقدم والازدهار.

إطفاء الحرائق الاجتماعية

من طبيعة الناس أنهم يُهرعون حينما يشبُّ أي حريق في محيطهم من أجل تطويقه وإطفائه. وذلك لأنهم يدركون مخاطر الحرائق، من تلف أرواح، وخسائر ممتلكات، ولأنهم يخشون من امتداد الحريق، باستمرار اشتعال النار، فهي تبدأ من نقطة ما، لكنها لا تقف عندها، بل تلتهم ما حولها، وتزداد اتقاداً واشتعالاً، وتقول هل من مزيد.

ولأن الناس يقدِّرون حاجة بعضهم إلى بعض في هذه المواقف الخطيرة، حيث لا يتمكن صاحب المحل الذي اندلع فيه الحريق من مقاومته وإخماده بمفرده.

من هنا تكونت في المجتمعات البشرية فرق مهمتها إطفاء الحرائق حينما تندلع في أي مكان، ويبدو أن أول منظمة لمكافحة الحريق تأسست في روما القديمة، حيث كوّن الإمبراطور أوغسطس الذي تسلم الحكم عام ٢٧ قبل الميلاد، مجموعة من الناس سمّاها الحراس، كانت مهمتها مراقبة الشوارع، والإبلاغ عن أي حريق يشب، ولا يعرف العلماء كثيراً عن تطورات منظمات إطفاء الحريق قبل حريق لندن الكبير عام ١٦٦٦م. وقد دمَّر هذا الحريق معظم أنحاء المدينة، وترك آلاف الأفراد بلا مأوى. وقبل الحريق لم يكن بلندن أي منظمة لمكافحة الحرائق.

وتُعدُّ اليوم فرقة الإطفاء بمقاطعة لندن رائدة فرق الإطفاء في العالم، ومع التطورات الكبيرة التي حصلت في مجال عمل فرق الإطفاء حيث تحولت إلى جهاز ومؤسسة رسمية ضخمة يطلق عليها «الدفاع المدني» تقوم بأغراض ومهمات عديدة، ولها ميزانيتها المعتمدة في مختلف الدول، لكن ذلك لم يلغ المبادرات التطوعية من قبل أفراد المجتمع في التصدي لخطر الحرائق وأمثالها، ففي البلدان المتقدمة هناك فرق الإطفاء المتطوعة، التي يعمل فيها رجال ونساء بصورة غير دائمة، فعندما يشب حريق يُهرع المتطوعون تاركين أعمالهم ومنازلهم، ويتوجهون بسرعة إلى فرقة الإطفاء، ويعطى بعضهم مكافآت رمزية. ويوجد في بريطانيا ٥٠,٠٠٠ متطوع، في حين يوجد في ألمانيا الغربية مليون متطوع[٢٥٩].

بالطبع لسنا بصدد الحديث عن فرق إطفاء الحرائق، وما ذكرناه مجرد مدخل وتمهيد، ننطلق منه إلى تساؤل مهم يرتبط بأوضاعنا الاجتماعية، وهو: لماذا لا يبدي الناس اهتماماً مماثلاً بالحرائق الاجتماعية؟، فحينما تشب نار العداوة والخلاف بين أفراد أو فئات من المجتمع، لماذا يأخذ الآخرون موقف التفرج وكأن الأمر لا يعنيهم؟ ولماذا لا يبادرون لتطويق هذا النزاع ـ الحريق كما يُهرعون لإطفاء الحرائق المادية؟

وإذا كانت الحرائق المادية تصيب الأشخاص والممتلكات، فإن الحرائق الاجتماعية تنال شخصيات الناس المعنوية، وتمزق وحدتهم وانسجامهم، وتعرِّض السلم الاجتماعي للخطر، وتكون أرضية وسبباً

---

(٢٥٩) الموسوعة العربية العالمية ج١٧ ص٣٠٧-٣١٤ الطبعة الثانية ١٩٩٩م الرياض.

لمشاكل واعتداءات وخسائر وحروب.

كما أن الخلافات الاجتماعية هي الأخرى كالنار تمتد إلى ما حولها وتحرقه بلهيبها، ولا تبقى عند حدود الشخصين أو المجموعتين المختلفتين، فكم من خلاف صغير بين زوج وزوجته تحوّل إلى نزاع ومعركة بين أسرتيهما وقبيلتيهما! وكم من نزاع بين فئتين محدودتين أدخل مجتمعا في أتون حرب أهلية مدمرة!

كذلك فإن المتورطين في النزاع قد لا يستطيعون إنهاء نزاعهم فيما بينهم وإن أرادوا ذلك، لما يحدث في نفوسهم من انفعالات وحواجز، فيحتاجون إلى مساعدة من خارجهم لترطيب الأجواء، وامتصاص التشنجات، وتقريب كل طرف إلى الآخر.

من هنا، فالحاجة ماسة إلى وجود فرق إطفاء للحرائق الاجتماعية، تطوِّق الخلافات والنزاعات، وتطفئ نيران الفتن والاحتراب، وتحمي السلم الاجتماعي.

إصلاح ذات البين:

ويطلق الإسلام على هذه المهمة المقدسة عنوان «إصلاح ذات البين» حيث وردت نصوص كثيرة تؤكد ضرورة القيام بهذا الدور، وتبشّر القائمين به بأرفع الدرجات وأعظم الأجر والثواب عند الله تعالى.

١ـ يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٢٦٠].

(٢٦٠) سورة الأنفال: الآية ١

إن القيام بدور إصلاح العلاقات بين أبناء المجتمع، وسد ثغرات الخلاف والنزاع، هو انعكاس للالتزام بتقوى الله، لذلك يأتي الأمر بالإصلاح بعد الأمر بتقوى الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾كما أن الإصلاح شرط من شروط تحقق المجتمع الإيماني ﴿إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢٦١).

فالعلاقة بين المؤمنين هي علاقة أخوَّة، ولا يصح أن تأخذ غير هذا المنحى، لذلك تستخدم الآية ﴿إِنَّمَا﴾ الدالة على الحصر، وإذا ما وقع خلاف أو سوء تفاهم بين مؤمن وآخر، فلا يجوز لسائر المؤمنين أن يتفرجوا على نشوب هذا الخلاف والنزاع، ويراقبوا بلا مبالاة استمراره وتطوره، ويَعُدُّون أنفسهم غرباء وغير معنيين به، إنه نزاع بين طرفين يرتبطان معكم برباط الأخوة، فكلاهما أخ لكم، وهل يصح السكوت على معاناة أخويكم؟ وهل يمكن أن تكونوا بعيدين عن آثار ذلك النزاع؟

إذاً ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فذلك مظهر لالتزامكم بتقوى الله، وإعداد لكم لاستحقاق رحمته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، فالمجتمع الذي تسوده أجواء الوحدة والانسجام يكون متنعماً بالرحمة والأمن، بينما إذا جزأته الخلافات والنزاعات فهو يعيش حالة العذاب والشقاء.

---

(٢٦١) سورةالحجرات: الآية١٠.

أفضل دور وخير عمل:

٢ـ لماذا يتطوَّع المؤمن لله تعالى بالصيام، ويتنفل بالصلاة، ويجود بالصدقة؟ أليس بدافع القربة إلى الله ونيل ثوابه ورضاه؟ إذا كان ذلك هو الهدف فإن النصوص الدينية تؤكد أن من أفضل طرق التقرب إلى الله وكسب رضاه وثوابه، هو السعي لإصلاح ذات البين. فهو أفضل من سائر العبادات والطاعات.

عن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إصلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصوم»[٢٦٢].

وفي حديث آخر عن أبي الدرداء عنه ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين»[٢٦٣].

وعن ابن عمر عنه ﷺ: «أفضل الصدقة إصلاح ذات البين»[٢٦٤].

وعن الإمام جعفر الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عمل امرؤ عملاً بعد إقامة الفرائض خيراً من إصلاح بين الناس، يقول: خيراً، وينمي خيراً»[٢٦٥].

٣ـ وإذا استلزم السعي لإصلاح ذات البين إنفاق شيء من المال، لترضية طرفي النزاع أو أحدهما، أو لأي نفقة في هذا المجال، فإنه يمكن أخذ تلك النفقات من الحقوق الشرعية، حيث ينطبق على ذلك عنوان

---

(٢٦٢) الهندي: علي المتقي/ كنز العمال- حديث رقم ٥٤٨٧.

(٢٦٣) المصدر السابق: حديث رقم٥٤٨٠.

(٢٦٤) المصدر السابق: حديث رقم٥٤٨٣.

(٢٦٥) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٣ ص٤٣.

سهم في سبيل الله من الزكاة، كما يمكن استئذان أي مرجع ديني فيما يرتبط بحق الإمام من الخمس، وفي الرواية التالية إشارة إلى رضا الإمام عليه السلام بصرف ماله في الإصلاح بين المؤمنين.

عن ابن سنان عن أبي حنيفة سابق الحاج «وهو سعيد بن بيان» قال: مر بنا المفضّل وأنا وختني «زوج ابنته أو زوج أخته» نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل، فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا من عنده، حتى إذا استوثق كل واحد منا من صاحبه، قال: أما إنها ليست من مالي، ولكن أبا عبد الله (جعفر الصادق عليه السلام) أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما وأفتديهما من ماله، فهذا من مال أبي عبد الله عليه السلام[266].

٤ـ ولأن المصلح يريد التقريب بين الطرفين المتنازعين، وخلق ثقة متبادلة بينهما، فقد يضطر لإعطاء انطباع إيجابي عن كل طرف للآخر، بالتحدث عنه بكلام طيب لم يقله، وتشجيعاً من الدين لمسعى الصلح، عَدَّ هذا التصرف مستثنى من الكذب الحرام، بل لم يَعدَّه الشرع كذباً ما دام يصب في مصلحة الإصلاح والوئام.

فقد جاء في صحيح البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيراً أو يقول خيراً»[267].

ومثله ما ورد في الكافي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال:

---

(٢٦٦) الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي ج٢ ص٢٠٩.

(٢٦٧) البخاري: محمد بن إسماعيل/صحيح البخاري/كتاب الصلح حديث رقم٢٦٩٢.

«المصلح ليس بكاذب»[٢٦٨].

وفي تعليقه على هذا الحديث قال العلامة المجلسي: أي إذا نقل المصلح كلاماً من أحد الجانبين لم يقله، وعلم رضاه به، أو ذكر فعلاً لم يفعله للإصلاح، ليس من الكذب المحرّم بل هو حسن، وقيل، إنه لا يسمى كذباً اصطلاحاً، وإن كان كذباً لغةً، لأن الكذب في الشرع ما لا يطابق الواقع، ويذم قائله، وهذا لا يذم قائله شرعاً[٢٦٩].

ويعزِّز هذا المعنى حديث آخر مروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الكلام ثلاثة: صدق وكذب وإصلاح بين الناس. قيل له: ما الإصلاح بين الناس؟ قال: تسمع من الرجل كلاماً يبلغه فتخبث نفسه فتلقاه فتقول: سمعت من فلان قال فيك من الخير كذا وكذا، خلاف ما سمعت منه»[٢٧٠].

الدور المفقود:

لا يخلو مجتمع من المجتمعات البشرية صغيراً كان أو كبيراً، ومهما كانت درجة وعيه أو تدينه، من وجود خلافات بين بعض أفراده أو بعض فئاته، والاجتماع الإسلامي وإن كان يفترض فيه الالتزام بتعاليم الإسلام، والتحلي بآدابه وأخلاقه، لكن ذلك لا يعني وصول أفراده إلى درجة العصمة، فهم بشر تعتورهم كل نواقص الطبيعة البشرية.

فحدوث النزاعات والخلافات أمر وارد وطبيعي في الاجتماع الإسلامي، بين الأفراد المؤمنين والفئات المسلمة، مع كونهم جميعاً ضمن

(٢٦٨) الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي ج٢ ص٢١٠.
(٢٦٩) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٣ ص٤٦.
(٢٧٠) الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي ج٢ ص٣٤١.

إطار الإيمان والإسلام. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾[٢٧١].

لكنه لا يصح السكوت والتفرج تجاه حالات الخلاف والنزاع التي قد تحدث في أوساط المجتمع، بل يجب القيام بدور إيجابي لتجاوز تلك الحالات، وتلافي آثارها ومضاعفاتها، بأن يبادر المخلصون الواعون للسعي في إصلاح ذات البين، فهو واجب كفائي لا يجوز أن يهمل أو يترك حينما تتهدد وحدة المجتمع والكيان الإسلامي، وإذا لم ينهض به من يكتفى به فمسؤولية التخلف عن هذا الواجب الديني الإنساني على عاتق الجميع. لأن الله تعالى يوجه الخطاب للعموم ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.

ومجتمعاتنا الإسلامية اليوم، تعاني الكثير من الخلافات والنزاعات ذات الطابع السياسي أو الديني أو الاجتماعي، فهناك خلافات بين أفراد، وصراعات بين فئات، ونزاعات بين دول وحكومات.

لكن دور السعي لإصلاح ذات البين في صفوف أبناء الأمة مفقود أو ضئيل جداً مع الحاجة الماسّة إليه، لذلك تنتشر الخلافات، وتتطور النزاعات، على حساب وحدة المجتمع وتماسكه وقوته.

فكم من أسرة تشتت شملها، وانهار كيانها العائلي، لخلاف بين الزوجين كان يمكن معالجته لو بذل سعي لإصلاح ذات بينهما؟

وكم من صراع تفاقم بين جماعتين دينيتين، وأحدث شرخاً عميقاً

---

(٢٧١) سورة الحجرات الآية٩.

في بنية المجتمع، وانقساماً بين طاقاته الفاعلة، وأضرّ بالحالة الدينية العامة، دون أن يقابله أي تحرك جاد، لتطويق الصراع، وتقريب وجهات النظر!

وقد تصل الأمور إلى ذروتها بنشوب حروب أهلية أو قبلية أو مذهبية أو سياسية لا تبقي ولا تذر، كما هو الحال في الصومال وأفغانستان والجزائر. وكما حصل من حروب مدمرة طاحنة بين بعض البلدان والدول الإسلامية.

إننا بحاجة إلى تفعيل مبدأ إصلاح ذات البين، وأن يبادر المخلصون الواعون من أبناء المجتمع، إلى تشكيل فرق ومجموعات لإطفاء الحرائق الاجتماعية، والتقريب بين مختلف الفئات والجهات، وداخل العوائل والأسر.

وظيفة القيادات الدينية:

عالم الدين لمعرفته بمقاصد الإسلام ومناهجه، ولحرصه على وحدة الأمة وقوة المجتمع، ولكونه في موضع الأسوة والقدوة، لذلك يفترض فيه أن يأخذ زمام المبادرة، لممارسة هذا الدور الإصلاحي المطلوب. خاصة أنه يتمتع بثقة واحترام ونفوذ اجتماعي يمكنه توظيفه في إنجاح مساعي الإصلاح وحماية السلم الاجتماعي.

وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على القيام بدور إصلاح ذات البين والمبادرة إليه، فقد أخرج البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن أناساً من بني عمرو بن عوف، كان بينهم شيء، فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم، فحضرت الصلاة ولم يأتِ

النبي ﷺ فجاء بلال فأذن بالصلاة ولم يأتِ النبي ﷺ (٢٧٢) .

وفي حديث آخر: أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: اذهبوا بنا نصلح بينهم» (٢٧٣).

كما ورد في سيرة الإمام علي عليه السلام اهتمامه بمعالجة وإصلاح حتى الخلافات الصغيرة، حيث مرّ ذات يوم بأصحاب التمر، فإذا هو بجارية تبكي، فقال: يا جارية ما يبكيك؟ فقالت: بعثني مولاي بدرهم فابتعت من هذا تمراً، فأتيتهم به فلم يرضوه، فلما أتيته به أبى أن يقبله، قال: يا عبد الله إنها خادم وليس لها أمر، فأردد إليها درهمها وخذ التمر، فقام إليه الرجل فلكزه، فقال الناس: هذا أمير المؤمنين، فربا الرجل واصفرّ وأخذ التمر، وردّ إليها درهمها. ثم قال: يا أمير المؤمنين ارضَ عني، فقال: ما أرضاني عنك إن أصلحت أمرك » (٢٧٤).

ومرة أخرى يجد امرأة تقول: إن زوجي ظلمني وأخافني وتعدى عليّ وحلف ليضربني، فيذهب معها الإمام وكان الوقت قيظاً في حرارة الشمس، حتى يصلح بينها وبين زوجها)(٢٧٥).

لذا، فإن المتوقع من علماء الدين القيام بمبادرات لإصلاح ذات البين، في أوساطهم أولاً، بمعالجة أي خلاف أو سوء تفاهم يحدث بين

---

(٢٧٢) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري كتاب الصلح – حديث رقم ٢٦٩٠.

(٢٧٣) المصدر السابق: حديث رقم ٢٦٩٣.

(٢٧٤) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٤١ ص٤٨.

(٢٧٥) بن شهرأشوب: محمد بن علي/ مناقب آل أبي طالب ج٢ ص١٢٢ الطبعة الثانية ١٩٩١م، دار الأضواء –بيروت.

عالم وعالم آخر، ولا يصح لهم أن يتفرجوا على الخلافات التي تحصل بين بعضهم، فإنها تسيء إلى سمعة الدين، وتترك أسوأ المضاعفات والآثار في المجتمع، وأن يتوجهوا ثانياً لحماية السلم الاجتماعي، ببذل الجهود لتطويق الصراعات، وتوحيد الكلمة، والحفاظ على تماسك المجتمع وانسجامه.

وقد سجل بعض علمائنا الأخيار صفحات مشرقة في ميدان السعي لإصلاح ذات البين، وعلى أعلى المستويات، فأحد علمائنا أطلق عليه لقب «مصلح الدولتين» وهو الإمام الشيخ موسى كاشف الغطاء «توفي ١٢٤٤هـ»، نجل الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء، وكان المرجع الديني الأعلى في النجف الأشرف، وحصل في عهده نزاع بين الدولة الإيرانية والدولة العثمانية، وزحفت إيران على العراق حتى وصلت بلدة بعقوبة وحاصرت بغداد فقام الشيخ موسى بدور مشكور للصلح بين الدولتين تركيا وإيران، وحقنت ببركات مسعاه الدماء، وتراجعت القوات الإيرانية، وعادت أجواء السلم والوئام، وذلك سنة ١٢٣٧هـ.

بالطبع فإن السعي لإصلاح ذات البين يكلف جهوداً، ويستلزم تضحيات، لكن استهداف رضا الله تعالى، والاهتمام بوحدة الأمة، وحماية السلم الاجتماعي، هو الذي يدفع المصلحين لتحمل المشاكل والصعوبات برحابة صدر وقوة جنان.

إن الجمعيات الخيرية في بلادنا يمكنها أن ترعى تكوين لجان أهلية لإصلاح ذات البين، والعلماء الأفاضل يستطيعون إطلاق مبادرات اجتماعية بهذا الاتجاه، وللخطباء والمثقفين والأدباء دور مهمّ في تشجيع هذا المنحى المبارك.





العمل التطوعي في خدمة المجتمع

تواجه الإنسان في هـذه الحيـاة مسـؤوليات كـبيرة تنـتظم في عـدة دوائر، فهو مسؤول بالدرجة الأولى عـن نفسـه لتسـيير شـؤون حياتـه، وتوفير متطلباته الذاتية ماديـة ومعنويـة، ثـم هـو مسـؤول عـن عائلتـه وأسرته، بأن يتكفل باحتياجاتهم ويرعى مصالحهم، وباعتباره جزءاً مـن مجتمعه ومحيطه، فهو معني بالشـأن الاجتمـاعي العـام، ولأنـه ينتمـي إلى الـدائرة الإنسـانية، فـلا بـد لـه مـن تحمـل مسـؤولياته علـى الصـعيد الإنساني العالمي.

ولكن هـل الإنسـان قـادرٌ ومؤهـلٌ للقيـام بهـذه المسـؤوليات في دوائرها المتعددة؟ وعلى جبهاتها المختلفة؟

نعم، بكل تأكيد، فقد هيأه الله تعـالى ليكـون خليفتـه في الأرض، ومنحه قدرات عقلية ونفسية هائلـة، يسـتطيع بهـا أن يسـخّر إمكانـات الحياة والكـون، وأن يحقـق أضـخم الإنجـازات، ويـؤدي أكـبر الأعمـال والمهام، ولسنا بحاجة إلى أدلة وبراهين نظرية لإثبات هذه الحقيقة، لأننـا نرى مصاديقها في الواقع الخارجي، فتاريخ البشرية في الماضـي والحاضـر يحفل بشخصيات قيادية لامعة، قامت بأدوار عظيمة على مستوى العالم، وتجاوزت حدود ذواتها، وإطار عوائلها، ونطـاق مجتمعاتهـا، وأصـبحت في موقع الريادة والتأثير على صعيد الإنسانية جمعاء والعالم كله.

فالإمكانات والمؤهلات متوفرة لدى الإنسان لتحمل كل هذه المسؤوليات، شرط الإدراك والوعي، وإرادة التصدي، وبذل الجهد والنشاط، وهنا يتفاوت الناس، فهناك من يفتقد الوعي والإدراك حتى لمسؤليته تجاه نفسه، ويقصّر في خدمة ذاته، ويصبح عبئاً وكلاً على الآخرين يحمّلهم مشاكله، ويعتمد عليهم في معالجة قضاياه، وهناك من يتعاجز أو يعجز عن القيام بمهام أسرته وعائلته، لقصور في وعيه، أو تقصير في حركته وأدائه، كما أن هناك من لا يبالي بواقع مجتمعه ولا دور له في خدمته. وفي مقابل هذه الحالات توجد صور مشرقة ونماذج رائعة، لأناس يمتلكون الوعي والإدراك لمسؤولياتهم الذاتية والعائلية والاجتماعية والإنسانية، فيقومون بأدوار كبيرة، ويقدمون خدمات جليلة.

ويتحدث القرآن الكريم موازناً بين هاتين الصورتين المتناقضتين لمن يعجز حتى عن خدمة نفسه، ويكون عبئاً على غيره، ولمن يجسّد الفاعلية والحركة الدائبة بالاتجاه الصحيح، ساعياً لتوجيه الآخرين وقيادتهم، يقول تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ، أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٢٧٦]

أسباب العزوف:

وإذا كان تحمل المسؤولية ضمن دائرة الذات والعائلة أمراً يفرض نفسه على الإنسان، لأن متطلبات الحياة الشخصية، والالتزامات

---

(٢٧٦) سورة النحل: الآية٧٦.

العائلية، تضغط عليه بشكل مباشر، كما تنعكس عليه مردودات ونتائج حركته في هذا الاتجاه بصورة فورية، لذلك لا يكاد يفلت من دائرة هذه المسؤولية إلا الشاذ النادر، فإن المعادلة على العكس من ذلك تماماً فيما يتعلق بتحمل المسؤولية تجاه المجتمع، حيث لا ينبري ولا يتصدى لها إلا ثلة قليلة من الواعين المخلصين.

وتكمن جملة من الأسباب وراء الظاهرة العامة للعزوف عن العمل في الخدمة الاجتماعية منها:

١ـ الاستغراق في الحالة الذاتية، فينصرف الإنسان إلى خدمة مصالحه الذاتية المباشرة، ولا يرى نفسه معنياً بخدمة مصالح الآخرين.

٢ـ تعدد الاهتمامات والانشغالات وخاصة في هذا العصر، حيث لم تعد الحياة ببساطة الماضي، ومحدودية آفاقه، فقد اتسعت دائرة المستلزمات المعيشية ووسائل الراحة والرفاه، وأصبحت تربية الأولاد ومتابعة تعليمهم تأخذ وقتاً وجهداً كبيراً من المهتمين بمستقبل أبنائهم، كما أن البرامج الإعلامية المتطورة عبر البث المباشر، ووسائل الاتصالات المتقدمة كالإنترنت، تقتطع من أوقات المنجذبين والمنشدين إليها الشيء الكثير.. وهكذا يعيش الإنسان في دوامة من الالتزامات والاهتمامات التي تصرفه وتشغله عن التوجه للعمل في ميادين خدمة المجتمع.

٣ـ وتعترض طريق العمل في الخدمة الاجتماعية العديد من المعوقات والمثبّطات في غالب بلدان ومجتمعات العالم الثالث، فالقوانين والأنظمة غير مشجعة، والروتين السائد يضاعف العناء والمشقة، والمواقف السلبية التي يتخذها البعض من الناس تجاه العاملين تسبب الإحباط والانزعاج بينما تتوفر أمام الراغبين في الخدمة العامة للمجتمعات المتقدمة، كل وسائل التشجيع وأجواء التقدير والدعم.

النتائج والمكاسب:

صحيح أن العمل التطوعي لخدمة المجتمع يأخذ من الإنسان وقتاً وجهداً قد يكون في حاجة إليه لشؤونه الذاتية، وأنه يحمّله أعباءً ومسؤوليات مرهقة، ويضعه في مواقف حرجة بعض الأحيان، إلا أن له نتائج ومكاسب عظيمة، إذا أدركها الإنسان استسهل كل الصعوبات، واستعذب كل المشاق.

أولاً: يحقق السعي في خدمة المجتمع وقضاء حوائج الناس، راحة نفسية وسعادة معنوية كبيرة، ففي أعماق الإنسان ميول ونوازع خيّرة، وبين جنبيه ضمير أخلاقي حسّاس، وإذا ما أنجز الإنسان أي خدمة تطوعية، أنقذ بها محتاجاً، أو أعان ضعيفاً، أو ساعد مظلوماً، فإن ذلك يسعد ضميره، وينعش أحاسيسه النفسية، ويشعره بالكثير من السعادة واللذة الروحية.

ثانياً: العمل الاجتماعي ينمّي عند الإنسان قدرات ذهنية ومهارات ومؤهلات سلوكية، تزيد من نقاط قوة شخصيته، حيث يكسبه الخبرة والتجربة، ويجعله أكثر معرفة وإحاطة بواقع المجتمع الذي يعيش ضمنه، والظروف التي تكتنفه.

ثالثاً: وبمقدار ما يؤدي الإنسان من دور اجتماعي، يأخذ موقفاً، وينال مكانة، في وسط المجتمع، وتتسع دائرة علاقاته وارتباطاته، وتظهر مواهبه وكفاءاته.

رابعاً: إن وجود مؤسسات الخدمة الاجتماعية، وإرساء قواعد التعاون والتكافل الاجتماعي، يوفر الاطمئنان في نفس الإنسان على مستقبله ومستقبل ذويه، حيث هو معرّض لحالات الضعف، وحدوث المشاكل والمخاطر، التي قد لا يستطيع مواجهتها بإمكاناته الذاتية،

فعمله وأمثاله هو الذي يصنع الضمانات لتوفير الدعم والمساندة، عند الحالات الطارئة لأبناء المجتمع.

ولعل هذا ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ (٢٧٧).

فإذا كنت مهتماً بمستقبل أبنائك الصغار من بعدك، فاجتهد في إقرار نظام تكافل اجتماعي، لحماية الأيتام، وخدمة مصالحهم، وذلك خير ضمانة لأطفالك، لو احتاجوا إلى الحماية والرعاية لا قدّر الله.

وبالمضمون نفسه نفهم ما قاله رسول الله ﷺ: «وتحنّنوا على أيتام الناس يُتحنّن على أيتامكم». فإضافة إلى الدور الغيبي، هناك الأثر الاجتماعي الواضح المتمثل في تكريس العادات والسنن الطيبة الحسنة.

خامساً: والإنسان المؤمن يدفعه إلى التطوع لخدمة الناس تطلعه إلى ثواب الله تعالى وجزائه، حيث تؤكد النصوص الدينية، أن خدمة الناس والسعي في قضاء حوائجهم، هو من أفضل الأعمال التي تقرّب الإنسان إلى ربه، وتوجب له المزيد من ثوابه ورضوانه.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قضى لمؤمن حاجة قضى الله له حوائج كثيرة أدناها الجنة» (٢٧٨).

وتؤكد نصوص كثيرة أن مساعدة الناس وخدمتهم أرجح فضلاً عند الله تعالى من العبادات والنوافل، كالحديث المروي عنه ﷺ: «من

---

(٢٧٧) سورة النساء: الآية ٩.

(٢٧٨) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧١ ص٢٨٥.

قضى لأخيه المؤمن حاجة كان كمن عبد الله دهراً » [٢٧٩] ، وعنه ﷺ: « من مشى في عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهد في سبيل الله »[٢٨٠].

وورد في حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: « قضاء حاجة المؤمن أفضل من ألف حجة متقبلة بمناسكها وعتق ألف رقبة لوجه الله » [٢٨١].

التطوع ظاهرة إنسانية:

التطوع لغة: تفعّل من الطاعة. وهو ما تبرَّع به من ذات نفسه مما لا يلزمه فرضه[٢٨٢]. وفي الاصطلاح الشرعي: يطلق على الأعمال والعبادات التي يحبذها الشرع دون أن يَعُدَّها فرضاً واجباً على المكلف، وهي النوافل والمستحبات، يقول تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾[٢٨٣]. أي من زاد على المقدار الواجب.

أمّا على الصعيد الاجتماعي فيقصد من التطوع: ذلك الجهد أو الوقت أو المال الذي يبذله الإنسان في خدمة مجتمعه دون أن يُفرض عليه، ودون انتظار عائد مادي في المقابل.

والتطوّع الآن ظاهرة إيجابية منتشرة في أغلب المجتمعات الإنسانية، وقد أصبحت مادة لتخصص علمي، يدرس دوافعها وآثارها ومعوقاتها وسبل تطويرها، ويرصد تجاربها وأساليبها.

---

(٢٧٩) المصدر السابق: ص٣٠٢.

(٢٨٠) المصدر السابق: ج٧٣ص٣٦٧.

(٢٨١) المصدر السابق: ج ٧١ ص٢٨٥.

(٢٨٢) ابن منظور: محمد بن مكرم/ لسان العرب ج٤ص٦٢٦.

(٢٨٣) سورة البقرة: الآية١٨٤.

فـإلى جانـب المؤسسـات الرسميـة الحكوميـة، هنـاك منظمـات ومؤسسات أهلية تطوعية تقوم بالعديد مـن الأنشـطة والمهـام في سـبيل خدمـة القضـايا الإنسـانية والاجتماعيـة، وفي إحصـائية عـن عقـد الثمانينيات، بلغ عدد المنظمات والهيئات غير الحكومية حـوالي٥٠ ألـف منظمـة وهيئـة في البلـدان الناميـة فقـط، تعمـل في الميـادين التنمويـة المختلفـة، ويقـدر عـدد الأفـراد المسـتفيدين مـن خـدماتها حـوالي «١٠٠مليون نسمة».

وتعجّ المجتمعات الغربيـة بـالكثير مـن المؤسسـات والهيئـات الـتي تعمل في مجالات الخدمة الاجتماعيـة والإنسـانية داخـل بلـدانها وعلـى مستوى العالم، ففي أمريكا وحدها هناك «٣٢,٠٠٠» مؤسسة خيرية بلغت ممتلكاتها عام ١٩٨٩م أكثر من «١٣٨» مليار دولار. كما شارك في العمل التطوعي حوالي «٩٣» مليون أمريكي يشـكلون نسـبة ٣٠٪ مـن مجمـل الأمريكيين، ينفقون سنوياً «٢٠» بليون ساعة في العمل التطوعي لصـالح الأطفال والفقراء والتعليم وقضايا أخرى[٢٨٤]، كما يقـدر معـدل التـبرع المالي لكل أمريكي «٥٠٠» دولار سنوياً. وقبل سـنتين تـبرع الأمريكـي "تيد تورنر" مؤسس «CNN» بثلث ثروتـه إلى المنظمـات الإنسـانية في الأمـم المتحـدة ويسـاوي مبلـغ مليـار دولار. وقـال "تـورنر" في بيان التبرع أن زوجته شاركته في القرار وفرحـت بـه، ويعـني بـذلك أنها لم تعترض ولم تقل له: ما لنـا وللأمـم المتحـدة وليبـق المليـار دولار لأولادنا!

وكانت عائلة "روكفلر" قد تبرعت قبل نصف قرن بالأرض الـتي

---

(٢٨٤) زغبي: جيمس/ أهمية العمل التطوعي عنـد المـواطن الأمريكـي- الشـرق الأوسط ١٩٩٧/٥/٥م.

أنشئ عليها مبنى المنظمة الدولية الأمم المتحدة.

وواضح أن لسيادة هذه الروح التطوعية الجماعية أثر كبير في تقدم المجتمع الأمريكي، فعندما زار" إلكسيس توكفيل" الكاتب الفرنسي الولايات المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر لاحظ أن الأمريكيين يشاركون في كثير من الجمعيات التي ينظمونها لخدمة أغراض مجتمعاتهم: زراعية ومالية ودينية واجتماعية وجمعيات من كل نوع وفي كل اتجاه. وعلّق "توكفيل" على هذا معتبراً أن هذه الجمعيات تمثل خاصتين جديدتين في المجتمع الأمريكي ستؤديان إلى تقدمه بسرعة متفوقاً بذلك على أوربا، التي كانت تسيطر على العالم في ذلك الوقت. هاتان الخاصتان هما فن التنظيم الاجتماعي، والرغبة في العمل الجماعي الطوعي وغير الطوعي[٢٨٥].

وجاء في تقرير حديث لجمعية فرنسا للشؤون الاجتماعية أن ١٠ملايين ونصف المليون فرنسي يتطوعون في نهاية الأسبوع للمشاركة في تقديم خدمات اجتماعية مختلفة تخص الحياة اليومية، من مجالات التربية والصحة والبيئة والثقافة والترفيه وغيرها.

وتتراوح أعمار ٥١ ٪ من المتطوعين ما بين الخامسة والثلاثين والتاسعة والخمسين. ويمثل الطلبة نسبة ٢١٪ وتتراوح أعمار المتطوعين منهم ما بين ١٨ و٢٥ عاماً [٢٨٦].

وتنطلق الأعمال التطوعية في تلك المجتمعات من الدوافع الخيّرة الموجودة في أعماق كل إنسان، ومن تقدم مستوى الوعي الاجتماعي،

---

(٢٨٥) صالح: حمدي/ المواطنون وجمعياتهم والتقدم- الحياة ١٤١٩/٩/٢٩هـ

(٢٨٦) الشرق الأوسط: جريدة- ١٩٩٨/٣/٣١م.

وبعضها لأغراض مصلحية، ومكاسب مادية.

حال مؤسساتنا الخيرية:

يفترض أن تشهد مجتمعاتنا الإسلامية إقبالاً على العمل التطوعي الاجتماعي أكثر من المجتمعات الغربية، لما في تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف من حث كبير على نصرة المظلومين، ومساعدة الفقراء، وخدمة المحتاجين، حتى عَدَّ القرآن الكريم ذلك مقياساً لصدق التدين، وأن من لا يهتم بمناطق الضعف في المجتمع، كاذب في تدينه، وإن تظاهر بطقوس الدين وشعائره، يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين. فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ. وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِين﴾[٢٨٧].

إضافة إلى الحاجات الكبيرة في مجتمعاتنا التي تتطلب الكثير من الجهود والطاقات لتلبيتها ومعالجتها، فهناك حالات الفقر والعوز، ومشاكل العلاقات والخلافات الاجتماعية، وقضايا التعليم والتوجيه الديني والسلوكي، وأمور البيئة، وأوضاع المحتاجين إلى الرعاية من مسنين ومعوقين وأيتام، إلى سائر مناطق الحاجة والفراغ.. إن كل ذلك يستلزم تعبئة الجهود والطاقات، وشحذ العزائم والهمم، لسدّ النواقص وتنمية المجتمع وتطويره.

وقد تأسست بحمد الله في مجتمعنا مؤسسات خيرية اجتماعية، كالنوادي الرياضية، والجمعيات الخيرية، ولجان كافل اليتيم، وصناديق الزواج الخيري، ومهرجان الزواج الجماعي، وهيئات ولجان للنشاط الديني والثقافي، ومع التقدير والامتنان للجهود الطيبة التي يبذلها القائمون على العمل في هذه المؤسسات التطوعية، إلا أننا نلحظ أن

---

(٢٨٧) سورة الماعون: الآيات ١-٣.

درجة الإقبال على العمل التطوعي ضمن هذه المؤسسات لا يزال محدوداً وغير متناسب مع التوجه الديني لمجتمعنا والحاجات الملحة القائمة بالفعل.

وتتضح هذه الحقيقة في قلة انضمام عناصر جديدة لإدارات هذه المؤسسات، وضعف رفد لجانها ومجالات عملها بالطاقات والكوادر التي تطوّر مسيرة العمل، وتواصل تقدمه.

إن بعض الجمعيات الخيرية تواجه مأزقاً وحرجاً عندما يحين موعد انتخاب أعضاء لإدارة جديدة، حيث لا يتقدم أحد لترشيح نفسه، أو لا يكون عدد المتقدمين كافياً للمواقع الشاغرة في الإدارة!!

إنه أمر مؤسف جداً حيث يعجّ مجتمعنا بالطاقات والكفاءات، والعناصر المؤمنة والواعية، فلماذا الإحجام عن التصدي للمسؤوليات الاجتماعية؟ ولماذا نتقاعس عن دعم هذه المؤسسات الخيرية التي تشكل تجسيداً لمبادئ التعاون والتكافل والتراحم الاجتماعي؟

أعذار ومبررات:

يعتذر البعض من الناس بانشغالاتهم والتزاماتهم الدراسية أو العملية والعائلية عن المشاركة في العمل الاجتماعي، لكن هذا العذر غالباً ما يكون وسيلة وتبريراً للتهرب عن المسؤولية، وإلاّ فإنّ العاملين فعلاً في المؤسسات الخيرية، ليسوا خالين من الالتزامات، ولا عاطلين عن العمل..

إن الإنسان إذا امتلك التطلع لثواب الله ورضوانه، وأدرك مسؤوليته الدينية والاجتماعية، فإنه بحاجة إلى شيء من تنظيم وقته، وهندسة اهتماماته وأولوياته، فكثير من الناس يضيعون أوقاتهم

وجهودهم في أمور وقضايا ثانوية هامشية بينما يعتذرون بعدم الفرصة للقيام بواجباتهم الاجتماعية..

إن تنظيم الوقت، والحرص على الانضباط الدقيق يعطي للإنسان مجالاً كبيراً للإنجاز واستثمار حياته، والذين يقومون بالأعمال الكثيرة، ويحققون النتائج الهائلة في حركتهم ونشاطهم، لا يفعلون المعجزات، وإنما يحسنون الإدارة والتنظيم لأوقاتهم.

كما أن الاستعداد للتضحية وبذل الجهد في سبيل خدمة المجتمع أمر مطلوب يفرضه وعي الإنسان والتزامه الديني، وانتماؤه الاجتماعي.

وقد يعتذر البعض بما قد يسبب لهم العمل الاجتماعي من إشكالات واعتراضات من قبل هذه الجهة أو تلك، لكن المؤمن الواعي يعرف أن الأجر والثواب يستلزم تحمل الأذى والمشاق، والمصلحون طوال التاريخ كانوا عرضة للاتهام والتجريح، لكن ذلك يصدر من الجهلة أو المغرضين، ولا يفتّ من عضد العاملين المصلحين.

إننا ندعو العناصر الواعية والمخلصة من أبناء المجتمع للالتفاف حول هذه المؤسسات الخيرية الاجتماعية، وأن ينخرطوا فيها، ويتحملوا أعباء إدارتها وتطويرها، وإذا كانت للبعض إشكالات على برامج هذه المؤسسات، فليمارسوا التصحيح والتغيير من داخلها، إنها توفر الفرصة المناسبة للتعاون على البر والتقوى، وللتدريب على اكتساب روح العمل الجمعي، وتكاتف القدرات والكفاءات، كما تساعد في معالجة الكثير من المشاكل والمصاعب التي تعيشها الفئات الضعيفة في المجتمع.

المجتمع واليتيم

ـ هل يمكن لليتيم أن يصبح عظيماً؟ أو يكـون شخصـاً ذا تـأثير وفاعلية في المجتمع؟

ـ هل في اليتم دلالة على ضعف الرعاية والمقام عند الله؟

ـ ما هو الدور المنتظر من المجتمع تجاه الأيتام؟

الحالـة الطبيعيـة أن ينشـأ الولـد في أحضـان والديـه، وفي كنـف أسرته، التي تحوطه بالرعاية والعناية، وتغمره بالعطف والحنان، وتقوّمـه بالإرشاد والتوجيه.

إلاّ أنّ الإرادة الإلهية قد تقتضي أن يفقد الإنسـان أحـد والديـه أو كلاهما في صغره، فيصبح يتيماً.

ويذكر اللغويون لليتم معان كثيرة، منهـا الهـمّ والإبطـاء والحاجـة والانفراد. فيقال (هذا عمل يتيم) أي ليس له نظير فهو منفـرد. وتطلـق العرب على من فقد أباه يتيماً، ولا تطلق ذلك على من فقد أمـه، هـذا في عالم البشر، أما في عالم الحيوان فتطلق العرب على من فقد أمـه منهـا يتيماً، لأن الأم في عالم الحيوان تتحمل الرعاية دون الأب. وفي المصـطلح الشرعي يطلق اليتيم على من فقد أباه قبل بلوغه.

حيث يخلف فقد الأب فراغاً حقيقياً لا يمكن سـده، ذلـك أنـه في

حالة فقد الأم فإن الأب يوفر الحاضنة ويسدّ النقص، فلا يصبح الابن محتاجاً للآخرين. مع الاعتراف بما للأم من خصوصية نفسية وعاطفية. أما مع فقد الأب فالولد معرّض للاحتياج والنقص.

ويلازم حالة اليتم عادة أمران:

- شعور بالنقص العاطفي، فاليتيم لا يتمتع بما يتمتع به الآخرون من عاطفة وحنان من قبل آبائهم.
- افتقاد بعض متطلبات الحياة واحتياجاتها من لوازم المعيشة ووسائل الترفيه وبعض الخدمات التي يقدمها الآباء غالباً.

كيف يفكّر اليتيم؟

إن الشعور الذي ينتاب اليتيم قد لا يكون مجرد شعور متخيل، بل واقع ملموس يعيشه ويعاني آثاره، غير أن هذا الواقع لا يصح الاستسلام والإذعان له، بل ينبغي مواجهته على الصعيدين النفسي والعملي.

أولاً: على اليتيم أن يسلّم بأنّ هذه الحالة هي قضاء وقدر إلهي، وهي للبشر امتحان وابتلاء من الله جل شأنه. ابتلاء لليتيم في كيفية تقبله لمشيئة الله تعالى، فهل يرضى ويسلّم لإرادة الله؟ أم يحمل روح الرفض والاعتراض؟ وابتلاء للناس في كيفية تعاملهم مع هذا اليتيم، فهل يقومون بما حثّهم الله عليه ندباً أو أوجبه فرضاً؟!

إذاً، لا ينبغي لليتيم أن يشعر بالنقص في قيمته عند ربه، فاليتم لا يدل على الدونية وضعة المقام عند الله. حيث يذكر التاريخ أن كثيراً من أولياء الله الصالحين كانوا أيتاماً، فنبي الله إبراهيم عليه السلام ولد يتيماً مات أبوه تارخ وهو في بطن أمه، ثم عاش في بيت عمه آزر وهو المشار إليه

في الآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[288]

ولأن عمه آزر قد ربّاه أطلق عليه أنه أبوه، وإلاّ فهو عمه، حيث لا يكون المشرك عابد الصنم أباً للنبي، كما هو قول أئمة أهل البيت عليهم السلام، ويؤيدهم في ذلك كثير من علماء أهل السنة. يقول الآلوسي: (والذي عوّل عليه الجم الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام، وادّعوا أنه ليس في آباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم كافر أصلاً لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات والمشركون نجس)[289].

وكذلك نبي الله موسى عليه السلام الذي لا تجد دوراً لأبيه في القرآن أو في نصوص التاريخ عند ولادته ونشأته، رغم المخاطر التي حفّت بأمه أثناء ولادته، والملابسات التي اكتنفت نشأته.

ومن الواضح أن نبي الله عيسى عليه السلام ولد من غير أب. أما نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أفضل الخلق، وأعزّهم على الله، وأحبّهم إليه، فقد مات أبوه وهو في بطن أمه، وماتت أمه وعمره ست سنوات، ثم عاش في كفالة جده عبد المطلب، ومن بعده عمه أبي طالب.

ثانياً: على اليتيم أن يفجر طاقاته وكفاءاته، حتى يحيل النقص كمالاً، ويصنع من الهمّ والمعاناة طاقة خلاّقة. وليس ذلك بعيداً فكثير ما تكون حالة الضعف والقصور دافعة نحو البذل والعطاء، فكم من يتيم معدم بزّ أقرانه من أبناء الأغنياء الموفورين. فمن العظماء الشهيد

---

(٢٨٨) سورة الأنعام: الآية ٧٤.

(٢٨٩) الألوسي البغدادي: السيد محمود/ روح المعاني في تفسير القرآن ج٧ ص١٩٤ الطبعة الرابعة ١٩٨٥م دار إحياء التراث العربي- بيروت.

المعاصر السيد محمد باقر الصدر الذي لم تقعد به وفاة والده عن النبوغ والتفوق، فوصل إلى ما لم يصل إليه أقرانه الذين كانوا في ظل آبائهم. وكذلك العلاّمة الشهير الشيخ محمد جواد مغنية الذي فقد أمه ثم فقد أباه في صغره، لكن ذلك لم يحل بينه وبين النجاح والتقدم على نظرائه وأنداده. إذاً علينا أن نشعر اليتيم أن بإمكانه أن يتفوق، ويصل إلى مراتب عالية إذا توجه إلى ذلك، وفجّر طاقاته الكامنة، وبلور قدراته ومواهبه، فاليتم لا يعدو أن يكون امتحاناً وابتلاءً من الله سبحانه وتعالى لليتيم وللناس من حوله.

مسؤولية المجتمع:

أولاً: دور الأم: تقوم الأم بدور كبير في توجيه اليتيم نحو تفجير طاقاته وكفاءاته، ورسالتنا إلى أم اليتيم: أن عليها أن تعوّض ابنها عما قد يشعر به من نقص في العاطفة والحنان، وأن تعكف على تربيته تربيةً صالحة جادة، وتساعده على أن يشقّ طريقه بنجاح، مع ملاحظة عدم الإفراط في الدلال بذريعة التعويض عن النقص العاطفي. فإهمال الرقابة، وإعطاء الحرية المطلقة، والتهاون بالأوامر والنواهي، وإغداق المال، قد يكون له نتائج سلبية جداً على شخصيته. إن من الضروري للأم أن توازن بدقة بين حقوق الطفل وواجباته، وأن تراعي ما يريده ابنها، وما هو محتاج إليه حقاً، فما كل ما يطلبه يحتاج إليه، وقد لا يرغب فيما يحتاج إليه. فليس كل إعطاء مصلحة، ولا كل حرمان مفسدة. وكم من أم كرّست حياتها، وضاعفت جهدها لرعاية أبنائها بعد فقد أبيهم، وصنعت منهم شخصيات ناجحة مؤثرة.

ثانياً: دور المجتمع: من أجلى مظاهر الإيمان في المجتمع رعاية المحتاجين، وفي طليعتهم الأيتام، فهم أشد حاجة للرعاية والاهتمام.

حيث يحتاج الفقير إلى النفقات المادية الحياتية. بينما تمتد حاجات اليتيم لتشمل الجوانب المادية والعاطفية. والمجتمع الخاضع لمقاييس الدين والإيمان يشعر بالمسؤولية تجاه الأيتام ويتحسس آلامهم، وينسب للإمام عليه السلام قوله:

ما إن تأوهت من شيء رزئت به كما تأوهت للأيتام في الصغر

وفي قول الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾[٢٩٠]، تنديد بالمجتمع المادي الجاهلي المعرض عن القيم والمبادئ الأخلاقية. وقد جعل الله تعالى إهمالهم لليتيم عنواناً لانحرافهم، وأول شيء يذكره من مساوئهم.

ومن أبرز مفردات مسؤولية المجتمع نحو الأيتام ما يلي:

١ـ توفير الحنان والعاطفة للأيتام، وعدم توجيه الإساءة إليهم حيث يولي الإسلام اهتماماً كبيراً للمشاعر والأحاسيس. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾[٢٩١]، وإهمال الأيتام دليل على أن المجتمع غير صادق في تدينه، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾[٢٩٢] أي يهمله ويرده بجفاء. وهذا الفعل يكشف عن قسوة القلب وتبلّد العاطفة، بينما قد لا يحتاج اليتيم شيئاً سوى المواساة القلبية، ليعوّض بعض ما فقده، قال الإمام علي عليه السلام: «ما من مؤمن ولا مؤمنة يضع يده على رأس يتيم ترحماً إلا كتب الله له بكل شعرة مرت يده عليها حسنة»[٢٩٣].

---

(٢٩٠) سورة الفجر: الآية١٧.

(٢٩١) سورة الضحى: الآية٩.

(٢٩٢) سورة الماعون: الآيتان١-٢.

(٢٩٣) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٢ ص٤.

وقال عليه السلام في وصيته الأخيرة قبيل وفاتـه: « الله الله في الأيتـام، فـلا تُغبّوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم»[٢٩٤]، ويشير الإمام عليه السلام بهذا إلى الحاجة المادية « لا تغبوا أفواههم » كما يشير إلى الرعاية الشاملة الكاملـة بعدم تضييعهم.

٢ـ تلبية المتطلبات والاحتياجات المادية التي يحتاجونها. فقد تكون الاحتياجات سكناً ملائماً، أو ثياباً مناسبةً، أو طعاماً صحياً، أو ما شـابه ذلك. يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «من عال يتيماً حتى يستغني عنه أوجب الله عـز وجـل له بذلك الجنة»[٢٩٥].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنـه قـال: « أنـا وكافـل اليتـيم في الجنـة هكـذا » وقـال بإصبعيه: السبّابة والوسطى[٢٩٦].

٣ـ تـوفير الإرشـاد والتوجيـه الثقـافي والسـلوكي، ولعلـه الأمـر الأكثر أهمية، وأشـد خطـورة، فالولـد ذكـراً كـان أو أنثـى، بحاجـة إلى التوجيه والإرشاد، في حداثة سنه، ومقتبل حياته، وخاصة فترة المراهقة، ويفترض أن يقوم الأب أولاً بهذا الدور تجاه أولاده، ومـع غيابـه يخشـى على الأولاد من الضياع، وخاصة في هذا العصر، حيث تسـود دواعـي الإغراء والغواية والانحراف.

فعلى ذوي الأيتام خاصة كـإخوانهم وأعمـامهم وأخـوالهم وسـائر أقربائهم أن ينتبهوا لهذا الجانـب المهـم، فيصـرفوا قسـطاً مـن جهـدهم واهتمامهم لتوفير التوجيه التربوي والسلوكي لهؤلاء الأيتام.

---

(٢٩٤) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة- كتاب ٤٧.

(٢٩٥) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج٧٢ ص٤.

(٢٩٦) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري حديث رقم ٦٠٠٥.

الولاية على اليتيم:

عند فقد الأب تكون الولاية على اليتيم منحصرة في جده لأبيه، وإذا لم يكن الجدّ موجوداً، فإن الولاية تكون للقيّم من أحدهما، وهو الذي أوصى أحدهما بأن يكون ناظراً في أمر الصغار من أولاده، ومع فقد الوصي تكون الولاية والنظر في شأن اليتيم للحاكم الشرعي، يتولاها بنفسه أو يعيّن أحداً وليًّا على اليتيم.

أما الأم والجد للأم والأخ، فضلاً عن الأعمام والأخوال، فلا ولاية لهم على اليتيم، ما لم يكن هناك وصية لأحدهم بذلك، من قبل الأب أو الجد للأب، أو تعيين من قبل الحاكم الشرعي.

وحينما يكون على اليتيم وليٌّ بعد أبيه وجده، فإن تصرفاته في شؤون اليتيم يشترط فيها لكي تكون نافذة شرعاً، أن تستهدف مصلحة اليتيم، أما إذا كان هناك ضرر على اليتيم، أو عدم مصلحة له، في أي تصرف من قبل الولي، فلا يكون نافذاً شرعاً.

ويلزم على وليِّ اليتيم (أن يصونه عما يفسد أخلاقه فضلاً عما يضر بعقائده)[٢٩٧].

أموال اليتيم:

تحدث القرآن الكريم في آيات عديدة مؤكداً أهمية حماية أموال اليتيم وحفظها وعدم التفريط فيها، وكما سبق، فإن الولاية على أموال اليتيم بعد الأب والجد، تكون للوصي المكلف بذلك من قبل أحدهما، فإن لم يكن هناك وصي، فالولاية للحاكم الشرعي. هذا في فقه أهل البيت عليهم السلام، أما في المذهب الحنفي فالولاية على أموال الصغير تكون

---

(٢٩٧) السيستاني: السيد علي/ منهاج الصالحين – المعاملات/ مسألة ١٠٧٨.

للأب، ثم وصيه بعد موته، ثم وصي وصيه، ثم جده (أبو أبيه)، ثم وصي جده، ثم وصي وصيه، ثم الوالي، ثم القاضي أو وصي القاضي. وعند المالكية والحنابلة: الولاية بعد الأب لوصيه، ثم للحاكم، ولا تثبت الولاية المالية للجد والأخ العمّ إلا بإيصاء الأب. وقال الشافعية: إن الولاية بعد الأب للجد، ثم وصي من تأخر موته من الأب أو الجد، ثم القاضي أو نائبه ولا ولاية لسائر العصبات كالأخ والعم، كما لا ولاية للأم[298].

ولكون اليتيم صغيراً ضعيفاً فإن ذلك قد يغري بعض المتولِّين على أمواله من ضعاف النفوس والايمان بإساءة التصرف فيها، لذلك يوجه القرآن الكريم الخطاب إلى هؤلاء الأولياء، محذراً لهم من هذا التعدي الخطير.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[299]

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾[300].

ويقول تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[301].

ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن المسؤولين والعاملين في لجان

---

(٢٩٨) الزحيلي: الدكتور وهبة/ الفقه الاسلامي وأدلته ج٥ ص٤٢٦-٤٢٧.

(٢٩٩) سورة النساء: الآية١٠.

(٣٠٠) سورة الأنعام: الآية١٥٢.

(٣٠١) سورة النساء: الآية٢.

كافل اليتيم، مخاطبون بهذه الآيات الكريمة ومطالبون بالحفاظ على ما يردهم من أموال مخصصة للأيتام، وأن يهتموا بالدقة والاحتياط في صرفها لما فيه خير الأيتام ومصلحتهم.

لجان كافل اليتيم:

يمكن لكل فرد أن يقوم بواجبه تجاه يتيم واحد أو تجاه بعض الأيتام ويثاب على عمله. ولكن تشكيل المؤسسات، وتنظيم اللجان والهيئات، التي تعمل على تلبية حاجات الأيتام، وتوفير الخدمات المناسبة لهم، يساعد على ضم الجهود إلى بعضها، مما يؤدي إلى زيادة كفاءة العمل، وتحقيق الأهداف بشكل أفضل. ولهذا العمل قيمة معنوية كبيرة في حل مشاكل الأيتام.

إن وجود لجنة تهتم بالأيتام، يعني وجود جهة توجه الأفراد والتجمعات نحو هذه الفئة، وتحث مختلف الشرائح على دعمها. وقد رأينا أن لجان كافل اليتيم في منطقتنا استطاعت أن تطور وتنوع الخدمات التي تقدم للأيتام. فمعظم هذه اللجان تقدم مساعدات مالية شهرية، وأخرى طارئة، فضلاً عن الإعانات الصيفية والشتوية. وتقوم بصيانة المساكن وغير ذلك.

كما أن وجود لجنة لكفالة الأيتام هو طمأنة للأيتام. فهم يشعرون أن ثمة جهة ومؤسسة ترعاهم، وتتابع شؤونهم، وهذا في حد ذاته مواساة معنوية كبيرة.

بالطبع، فإن الجهود تتطور وتتكامل إذا انضمت إلى بعضها. ووجود لجنة يعني ضم كافة الطاقات والكفاءات التي يمكن أن تساهم في إنجاح هذا المشروع، مما يعني إدخال عنصر التخطيط والمشورة وهذا إرساء لأسلوب مهم في العمل.

تقدير وتذكير:

في الوقت الذي نعرب فيه عن تقديرنا للدور الكبير الـذي تقـوم به لجان كافل اليتيم، حيث ملأت فراغـاً مهمّـاً، وتحملـت عـن المجتمـع مسؤولية عظيمة، فإننا نـذكّر هـذه اللجـان بضـرورة مضـاعفة الجهـد، وتطوير النشاط، خاصة فيما يرتبط برفع كفاءة الأيتـام، وتقـدمهم علـى صعيد التعليم وبناء القدرات والمهارات، بمتابعـة مسـيرتهم الدراسـية، وتشـجيعهم علـى التميـز والتفـوق، ومسـاعدتهم في تحصـيل فـرص الدراسات الجامعية والعليا.

ومن ناحية أخرى، الاهتمام بإحاطتهم بـأجواء الرعايـة التربويـة، والتوجيه السلوكي، بوضع خطط وبرامج للتوعية والإرشاد، وملاحظـة ما قد يطرأ على حياتهم وسـلوكهم مـن نـواقص وثغـرات، مـن أجـل المعالجة والإصلاح.

ونأمل أن يتفاعل المجتمع بصورة أكـبر مـع هـذه اللجـان (كافـل اليتـيم) بـدعمها ماليـاً، وبرفـدها بالعناصـر المخلصـة الكفـوءة، والاقتراحات المفيدة البناءة، لتقوم بواجبها على خير وجه.

وكان الله في عون كل يتيم حتى يتجاوز محنة يتمه بسـلامة ونجـاح، ووفق الله المؤمنين لتحمل مسؤولياتهم تجـاه الأيتـام في مجـتمعهم، وأمـدّ الإخوة الأعزّاء العاملين في لجان كافل اليتيم بالمزيد من توفيقه ورضاه.

المصادر

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ ابن أبي الحديد: عبد الحميد/ شرح نهج البلاغة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت/ الطبعة الثانية ١٩٦٥م.

٣ـ ابن ابي شيبة: الحافظ أبو بكر/ الكتاب المصنّف في الاحاديث والآثار، الدار السلفية ـ الهند/ الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٤ـ ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي/ الكامل في التاريخ، مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت/ الطبعة الرابعة ١٩٩٤م

٥ـ ابن شهر أشوب: محمد بن علي/ مناقب آل أبي طالب، دار الأضواء/ الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

٦ـ ابن عاشور: محمد الطاهر/ تفسير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ ـ بيروت/ الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

٧ـ ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، انتشارات سعيد بن جبير ـ قم.

٨ـ ابن منظور: لسان العرب المحيط، دار الجيل ودار لسان العرب ـ بيروت.

٩ـ ابن هشام: عبد الملك المعافري: السيرة النبوية، دار إحياء

التراث العربي ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
١٠ـ الأصفهاني: الشيخ محمد حسين/ حاشية كتاب المكاسب، دار المصطفى لإحياء التراث ـ قم/ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
١١ـ الألوسي البغدادي: السيد محمود/ روح المعاني في تفسير القرآن، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٢ـ الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
١٣ـ البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري، دار الكتب العلمية ـ بيروت/ ١٤٢٠هـ.
١٤ـ جابر: د.جابر عبد الحميد ـ كفافي: د.علاء الدين/معجم علم النفس والطب النفسي، دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٩٠م.
١٥ـ الحر العاملي: محمد بن الحسن/ تفصيل وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
١٦ـ الحراني: الحسن بن علي بن شعبه/ تحف العقول عن آل الرسول، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت/ الطبعة الخامسة ١٣٩٤هـ.
١٧ـ حوحو: المهندس أسامة/ مآثر العلماء، مؤسسة بحسون ـ بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
١٨ـ الحياة: جريدة يومية تصدر من لندن
١٩ـ الخوئي: ميرزا حبيب الله/ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، مؤسسة الوفاء ـ بيروت/ الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٢٠ـ الرحيلي: د. عبدالله ضيف الله/ الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها، مطبعة السفير ـ الرياض/ الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
٢١ـ الريشهري:محمدي/ ميزان الحكمة، مكتب الاعلام الاسلامي ـ قم/ ١٤٠٣هـ..
٢٢ـ الزحيلي: الدكتور وهبة/ الفقه الاسلامي وأدلته، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ/ دار الفكر ـ دمشق.
٢٣ـ زغبي: جيمس/ أهمية العمل التطوعي عند المواطن الأمريكي ـ مقال ـ جريدة الشرق الأوسط: ٥ / ٥ / ١٩٩٧م.
٢٤ـ السبحاني: الشيخ جعفر/ بحوث في الملل والنحل، الدار الإسلامية ـ بيروت/ الطبعة الثانية ١٩٩١م.
٢٥ـ السجستاني: أبو داود سليمان بن الأشعث/ سنن أبي داود، دار الجنان ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
٢٦ـ السعدي: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر/ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار الذخائر ـ مؤسسة الريان ـ بيروت/ ١٤١٨هـ.
٢٧ـ السيستاني: السيد علي الحسيني/ منهاج الصالحين، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ مكتب آية الله العظمى السيد السيستاني ـ قم.
٢٨ـ الشرق الأوسط: جريدة يومية تصدر من لندن.
٢٩ـ الشوكاني: محمد بن علي بن محمد/ تفسير فتح القدير، المكتبة العصرية ـ بيروت/ الطبعة الاولى ١٤١٨هـ.
٣٠ـ الشيرازي: السيد محمد الحسيني/ السبيل إلى إنهاض المسلمين، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ /قم.
٣١ـ الشيرازي: السيد محمد/ من أخلاق العلماء، مكتبة جنان

الغدير ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
٣٢ـ الشيرازي: ناصر مكارم/القواعد الفقهية، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ قم
٣٣ـ صالح: حمدي/ المواطنون وجمعياتهم والتقدم ـ مقال ـ جريدة الحياة: ٢٩ / ٩ / ١٤١٩هـ.
٣٤ـ الطباطبائي: اليسد محمد حسين/ الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
٣٥ـ الطبرسي: الفضل بن الحسن/ مجمع البيان في تفسير القرآن، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت.
٣٦ـ الغزالي: أبو حامد/ المستصفى من علم الأصول، تحقيق د. حمزة حافظ/ الجامعة الإسلامية ـ كلية الشريعة ـ المدينة المنورة.
٣٧ـ فضل الله: السيد محمد حسين/ خطوات على طريق الإسلام، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.
٣٨ـ القرشي: باقر شريف/ حياة الإمام زين العابدين، دار الكتاب الإسلامي –قم/ الطبعة الأولى ١٩٨٨م.
٣٩ـ القرضاوي: الدكتور يوسف/ الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، مؤسسة الرسالة ـ بيروت/ الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.
٤٠ـ القزويني: حسن مرتضى/ الرسول الأكرم مدرسة الأخلاق، دار البيان العربي ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٩٩١م.
٤١ـ القمي: الشيخ عباس/ مفاتيح الجنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
٤٢ـ الكليني: محمد بن يعقوب/ الأصول من الكافي، دار الأضواء ـ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٤٣ـ المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء ـ بيروت/ الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
٤٤ـ مجموعة من المتخصصين: موسوعة نضرة النعيم، دار الوسيلة ـ جدة/ الطبعة الأولى ١٩٩٨م.
٤٥ـ مختاري: الشيخ رضى/ سيماء الصالحين/ ترجمة الشيخ حسين الكوراني/ دار البلاغة ـ بيروت ١٩٩٢م.
٤٦ـ المطهري: مرتضى/ العدل الإلهي، مؤسسة الوفاء ـ بيروت/ الطبعة الثانية ١٩٨٤م.
٤٧ـ مغنية: محمد جواد/ في ظلال نهج البلاغة، دار العلم للملايين ـ بيروت/ الطبعة الثالثة ١٩٧٩م
٤٨ـ الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ـ الرياض/ الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.
٤٩ـ الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم/ ١٤٠٦هـ.
٥٠ـ ميل: روجيه/ المواقف الأخلاقية ترجمة الدكتور عادل العوّا، منشورات عويدات ـ بيروت ـ باريس/.الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
٥١ـ النمر: أسعد/ في سيكولوجية العدوان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع/ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
٥٢ـ النوري: ميرزا حسين/ مستدرك الوسائل، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث/ الطبعة الثالثة ١٤١١هـ.
٥٣ـ الهندي: علي المتقي/ كنز العمال ،مؤسسة الرسالة/ الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ.